الجـزء الأول

مدخل ووجهة نظر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصـــل الأول

الإحساس بتأثير التنمية

العمالة المهاجرة :

تخيل أنك غير قادر على الحصول على وظيفة فى مسقط رأسك ، ولا تستطيع عائلتك الاستمرار فى مساعدتك ماديا ، وأصبح الموقف صعب الاحتمال . فتجد نفسك مهاجرا إلى مدينة أخرى أو بلد آخر آملاً فى بداية جديدة . وعند وصولك إلى وجهتك فإنك تواجه مشاكل كثيرة تحتاج إلى حلول عاجلة من أهمها الحصول على الطعام والمأوى بأسرع ما يمكن . وتجد نفسك فى حاجة إلى أصدقاء ، وربما تجد نفسك تتحدث بلهجة أو لغة أجنبية وعندئذ فإنك مهاجر من العمال .

تخيل أنك تعيش فى الساحل الإفريقى ، ذلك الحزام الصحراوى أو شبه الصحراوى ويمتد فى النصف الشمالى للقارة . وقد حدث هناك جفاف لعدة سنوات . واختفت المراعى ومات ما تملكه أسرتك من قطعان ، ولا يوجد طعام وفشلت الحكومات فى تقديم المساعدة ورفضت الاعتراف بوجود المشكلة وهى تخشى أن صرحت بذلك أن تفقد البنوك العالمية التى أقرضتها الثقة فيها ولا تقدم لها القروض مرة أخرى .

فإنك تقرر الانتقال إلى العاصمة على بعد ٥٠٠ كم ، وبعد رحلة متعبة معظمها سيرا على الأقدام وأحيانا عن طريق «الأوتوستب» ، وتصل لتواجه مشكلة الطعام ، المأوى ، العمل والأصدقاء . ومرة ثانية فأنت العامل المهاجر .

إنه من المحتمل فى الحالة الأولى أنك لا تجد وظيفة بسبب اضمحلال بعض الصناعات التى قد كانت لآبائك وأجدادك ، وفرص العمل والاضمحلال الصناعى ربما هو نتيجة لفقد السوق فلم يعد هناك مستعمرات تشترى الفائض ، أو لأن هناك دول أخرى تنتجها بأسعار أرخص . وفى الحالة الثانية ، وفى حالة نزول المطر الغزير فإن له أثره الملموس على أرض عائلتك التى كانت ترعى فيها طول العمر والتى قد فقدت . وربما تجد إحدى الشركات الأجنبية

قد أجرت جزءاً من الحكومة وخاصة الجزء الذى كان يترك فى أوقات السيول الشديدة . أما الشىء المشترك بين الموقفين هو أنك مضطر لاتخاذ القرار وتواجه المشاكل ليس لأنك تختارها إلا أنك مضطر لمواجهتها .

الإحساس بالعالم :

كيف يستطيع علم اجتماع التنمية أن يساعدنا بمثل هذا الموقف ؟ ويحاول علم الاجتماع بكثير من الطرق أن يجعلنا نحس "بالبعيدين" أو "الآخرين" والتى كلنا نحسها عندما لا نستطيع عمل شىء نريده ، ولا نستطيع عمله كأفراد ، لأن هناك قواعد ((قانونية مكتوبة وتنفذ عن طريق القضاء والأخلاق ، والمعتقدات وما هو بديهى فى حد ذاته للسلوك وتمدنا بالمعتقدات فى أفعال غير إنسانية)) والتى تمنعنا وتحدد سلوكنا .

وقد وصف علم الاجتماع من أحد رواده الأوائل " إميل دوركايم " "Emile Durkheim" على أنه الدراسة الخاصة "بالحقائق الاجتماعية" ، (أنظر اطار ١ – ١) .

اطار ١ – ١ . الحقائق الاجتماعية

... هناك مجموعة من الظواهر ربما تكون مختلفة عن تلك التى تدرس بواسطة العلوم الطبيعية . عندما أقوم باداء واجباتى كأخ أو زوج أو مواطن عندما أنفذ عقودى ، فإننى أقوم بواجبات يوضحها القانون والعادات . حتى إذا ما اتفقت مع عاطفتى فإننى أحس بموضوعيتها وقربها لى ، ومثل هذه الحقيقة تعنى الإيجابية لأننى لم أخلقهم ، ولكننى ورثتها فقط عن طريق التعليم . . . هنا ، ونجد فئة من الحقائق لها خواصها : وتتكون عن طريقة العمل والتفكير والاحساس الخارج عن الفرد ، ولها قوة الإجبار عن طريق العقل والتى بها يمكن السيطرة عليه .

(Durkheim, E., The Rules of Sociological Method, The Free Press, New York, 1964 pp. 1-3, first publishedin French in 1893, in English. 1933.)

وما كان يحاول دوركاييم إيضاحه هو دراسة الآخرين فى المجتمع ودورها فى تحديد رغبات وطموحات الفرد . فهو يتساءل عما يوفره المجتمع من درجات النظام والاعتيادية والاتفاق على قواعد معينة للسلوك . وعلى وجه الخصوص ، كان مهتما بكيفية نشأة أخلاقيات

المجتمع خلال مجموعة عظيمة من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

وكانت مقدمة هذا الفصل عن العامل المهاجر . لأنه عبر التاريخ مثل هؤلاء الناس كانوا ينتقلون من أماكنهم المألوفة إلى المجهولة بحثا عن الحياة الجديدة بما تشمله من قوانين جديدة . فكان على هؤلاء المهاجرين أن يجدوا حلولاً لمشاكل النظام والأخلاقيات ، نتيجة لوجود المتغيرات التى تؤثر على حياتهم . هذه التغيرات شملت تجارة العبيد (نوع كريه من أشكال العمالة المهاجرة) ، وما شهدته مرتفعات شمال اسكتلندا فى القرن ١٨ (أنظر إطار ١ – ٢) وهجرة الناس من جنوب أوروبا للعمل فى ألمانيا أو العمال المهرة فى انجلترا الذين يغادرونها خوفاً من البطالة إلى دول الخليج .

اطار ١ – ٢ الاراضى المرتفعة

منذ بداية عام ١٧٧٥ عانى صغار المزارعين فى المرتفعات الاسكتلندية لأن أراضيهم قد خصصت للرعى . ورفع الانجليز وملاك الأرض الإيجارات ، ولذا بدأت هجرة كبيرة إلى أمريكا الشمالية . وعلى سبيل المثال ماكتب عن اسكتلندا الجديدة بكندا عام ١٨٠٧ فى وصف هؤلاء المهاجرين "كان على كل من يقيم على قطعة أرض فى ناحية ما دفع إيجار ... والتى ... كانت تكفيهم بالكاد... ولذلك شدوا العزم ورحلوا إلى امريكا الشمالية ومعهم زوجاتهم الحوامل والاطفال سيراً على الأقدام فى سبيل الاستقرار فى عالم جديد"

Richards, E., A History of the Highland Clearances, Croom Helm, 1983, p. 203.)

لقد استخدمت صورة العامل المهاجر لكى نقيم حلقة اتصال بين الماضى والحاضر ، بمعنى اننا نربط حقبة معينة من الزمن هى اواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عندما كانت هناك حركات هائلة من الهجرة ، وخاصة بين الدول الأوربية . وكان ذلك نتيجة التغيرات الجذرية فى تنظيم كل من المنتجات الزراعية والصناعية . إنها فترة التغيير الجذرى ، لانتشار الرأسمالية لتصبح النسق الاقتصادى السائد ، والتى أوجدت فرصة لهجرة العمال من مناطق ريفية إلى أخرى ، ومن الريف إلى المدينة ، وإلى نمو المدن (أنظر إطار ١ – ٣) . وقد أدت أيضا إلى تنمية علم الاجتماع كمجال للدراسة وكمحاولة لدراسة الفوضى – فهو العلم الذى قد أتى من خلال هذا النظام فى هذا التغير المفاجئ وفى عالم مضطرب ، والذى أراد أن

يوجد نوعاً من النظام والاستقرار فى هذا العالم المتغير والمضطرب .

إطار ١ – ٣

الحركة العمالية فى انجلترا

إن ما كتب عن الريف الإنجليزى عام ١٧٩٥ يلاحظ منه الآتى : إن المزارع الكبيرة القائمة على جهود الفلاحين خاصة المحرومين ، قد أسهمت فى زيادة عدد الفقراء المتواكلين . فكثير من ملاك الأرض كان عليهم أن يواجهوا الزيادة المستمرة فى أعباء المعيشة فاضطروا إلى رفع الايجار إلى درجة كبيرة ، وتفادى الاصلاحات . كما استطاع كبار الملاك شراء كثير من المزارع وتحصيل أرباح كثيرة ، وبذا حققوا كثيراً من الأرباح ، فنجد أن من كانوا ملاكاً لقطع صغيرة من الأرض قد تحولوا إلى أجراء . وفى بعض الأحيان لا يستطيعون العمل فيلجأون إلى الكنيسة ، ومن ثم فقد زادت العائلات الفقيرة .

(Rev. Davies, D., The Case of the Labourers in Husbandry, 1975, quoted in Cole, G. D. H. and Filson, A. W., The British Working Class Move ments: Selected Documents 1789 - 1875, st. Martin's press, New York, 1967, p. 3 .

وهذا يوضح تأثير الثورة الصناعية والزراعية . فالتكنولوجيا الحديثة تعنى قلة استخدام العمال فى الإنتاج الزراعى وأكثر من ذلك فى الصناعة ، وهكذا اصبح هناك فائض فى العمال الزراعيين ، وبدأت عمليات الهجرة العمالية . العمال الذين يقطنون بجوار المصانع يذهبون اليها للعمل . وهكذا أعيد توزيع العمالة داخل الريف . ولكن العملية أخذت وقتا ، وغالبا وجدت جيوب بها فائض من العمال . وهؤلاء الناس كانت تمدهم بالعون الكنيسة المحلية .

وهناك عملية مماثلة اليوم لانتقال العمال من المناطق الريفية إلى الأماكن الحضرية فى أقطار أفريقيا ، وآسيا ودول أمريكا اللاتينية .

إن جذور علم الاجتماع تقوم على محاولة فهم التغير . وعلى ذلك فإن علم اجتماع التنمية أحاط بكل علم الاجتماع . والسؤال : ماذا تعنى "التنمية" ؟ ماتعنيه التنمية سوف يظهر من خلال هذا الكتاب ومع سؤال آخر وهو : لماذا اخترنا استخدام كلمة "التنمية" بينما الكلمات

الأخرى مثل كلمة "تغير" * تبدو كافية ؟ إن (أطار ١ – ٤) ربما يكشف بعض معانى كلمة "تنمية" . وسوف نجدها أكثر تفصيلا فى الفصل التاسع .

أطار ١ – ٤ ماذا نعنيه بالتنمية ؟ : ** .

فى محاولة للإجابة على هذا السؤال ، سوف أتحدث من خلال ثلاثة معانى أو تعريفات وثلاث مشاكل ، هى :

التنمية من الداخل : هذا الرأى يقول أن أى شىء ، نبات أو حيوان أو مجتمع ، فى داخله رغبة لتغيير شكله . وعندما نتحدث عن المجتمعات بهذه الطريقة ، فإننا نفترض الإمكانات ونتائج التغير نتيجة عمليات داخل المجتمع .

التنمية كتفاعل : هذا الرأى يرى أن التنمية ناتجة عن تفاعل أى شىء مع بيئته . وهكذا نجد أن الحيوان أو المجتمع يتغير نتيجة لعدة صفات كامنة داخل الشىء نفسه ولوجود الفرص والمصادر المتاحة فى البيئة .

التنمية عملية متداخلة : وهذا الرأى لا يرى فرقا واضحا بين الأشياء وبيئتها . وعلى سبيل المثال :

---

* هناك إنتقادات وجهت إلى كثير من النظريات السسيولوچية التى ظهرت خلال القرن التاسع عشر ، تجاه بعض المفاهيم وما بها من خلط شديد كمفهوم التغير والتطور والنمو والتقدم ففكرة النموغالباًما تختلط مع فكرة التطور ، ومفهوم التطور يتداخل مع مفهوم التقدم ، وكذلك يستخدم البعض مفهوم التغير للإشارة الى كل الاختلافات التاريخية ... [المترجمة] .

* لقد بذلت محاولات عديدة لتحديد معنى هذا المفهوم ... فمن هذه التعريفات ما يؤكد على استخدام التكنولوجيا والتحديث . وأنها عملية معقدة شاملة تضم جوانب اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية وايدولوجية ... كما تعرف التنمية على أنها عملية تستند إلى الاستغلال الرشيد للموارد بهدف إقامة مجتمع حديث يتميز بتطبيق التكنولوجيا والتساند الاجتماعى الواسع النطاق ، والتحضر ، والتعليم ، والحراك الاجتماعى ، إذن فهى تفترض توافر الدينامية ، والتغير ، والتصنيع ، والاستقلال والتأثير ... إلخ .
ومن التعريفات من يركز على البعد الثقافى الاجتماعى ... ويرجع إختلاف هذه التعريفات إلى اختلاف المنطلقات النظرية واتجاهات التنمية سواء أكان اتجاه مادى – والذى أسس دعائمه ماركس – أو اتجاه مثالى – والذى أرسى أسسه ڤيبر – ... ولمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى الدراسات القيمة فى هذا الموضوع ومنها :
– محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف ، ط ١ ١٩٧٨ .
– السيد الحسينى : التنمية والتخلف ، سلسلة علم الاجتماع المعاصر ، الكتاب الثامن والثلاثون ، مطابع سجل العرب ، ط ١ ، ١٩٨٠ .... [المترجمة] .

المجتمع المصرى والغالبية فيه مسلمة والبيئة المجاورة هناك وتشمل بيئات إسلامية كثيرة ، والافكار والاهتمامات تؤثر فى الناس المقيمين فى مصر .

ثلاث مناطق للمشاكل :

كل من معانى التنمية يمكن أن يطبق على عديد من المشاكل التى تعتمد على ما نقرره أو نراه فى بؤرة الضوء . وعلى سبيل المثال ، إننا يمكن أن نهتم بتنمية الأسرة وفى ضوء الثلاثة أفكار التى سبق ذكرها . ودائما وعادة فى علم اجتماع التنمية نجده يهتم بعمليات التنمية ، إما على مستوى واحد أو على الثلاث مستويات التالية : الاجتماعى والثقافى والسياسى .

وهذا المدخل يمدنا بجدول دقيق يوضح الثلاث مشاكل التى يمكن تحليلها بثلاث طرق . ويمكنك الاطلاع على هذا الجدول التالى :

التنميـــــة

	من الداخل	التفاعل	التداخل
الاجتماعى	١	٢	٣
الثقافـــى	٤	٥	٦
السياسـى	٧	٨	٩

حاول ماكس فيبر "Max Weber" أن يفهم بعض مسببات ونتائج مشكلة هجرة العمالة من ألمانيا فى بداية القرن التاسع عشر ، حيث ظهر نوع من "التنمية" أو أخذت التنمية مجالها فى أوربا (أنظر إطار ١ – ٥) .

إطار ١ – ٥ رأى فيبر عن هجرة العمالة :

أكد فيبر أن الرأسمالية * هى السبب فى انتقال العمال من ألمانيا الشرقية وأشار إلى الاستخدام الدائم للنساء كعاملات ، ووجود ما يشبه السكنات للعمال ، يعيشون فيها هم

* لقد اهتم ماركس وفيبر بنشأة النظام الرأسمالى بوصفه أسلوبا للتنمية ، ولقد نظر ماركس إلى التنمية الرأسمالية أو "التحديث" بوصفها عملية بدأت فى أوربا ثم بدأت تسود العالم كله ، حيث انتشار الثقافة =

والأجراء مع وجود عجز فى المرتبات وعدم وجود البديل على شكل إقامة الحدائق أو تربية قليل من رؤوس الماشية . ومن خلال البروليتاريا . نجد أن كثيراً من العمال الريفيين قد أصابهم الضرر بسبب لجوء كثير من أصحاب رأس المال إلى استخدام المهاجرين البولنديين والروسيين وهذا التفضيل يرجع إلى وجود العمالة الأجنبية ورغبتها فى العمل وموافقتها على أجور قليلة ، لأن إنتاجها أيضا كان اقل من إنتاجية العمالة الألمانية ، ولكن العمال الروس والبولنديين كانوا مطيعين وذلك بسبب حالتهم الاجتماعية . وإذا ما نظرنا إليهم نجدهم عمالاً موسميين حيث يمكن إرجاعهم عبر الحدود إلى بلادهم مخففين العبء المالى والالتزامات الإدارية عمن يوظفونهم . ولكن العمال الألمان أنفسهم كانوا أكثر طلباً من المهاجرين بالنسبة للتغذية وظروف العمل وبسبب طلباتهم ذات المستوى العالى خسروا فى المنافسة مع البولنديين والروس .

(Bendix, R., Max Webwr : an intellectual portrait, Methuen, 1962, pp. 19 - 20.)

علم الاجتماع نظرة تاريخية بيوجرافية :

يوصف علم الاجتماع على أنه العلم الذى يهتم جزئيا بالسير الذاتية والتاريخ . هذه فكرة هامة ، لأنها توجه اهتمامنا إلى مظهرين من دراستنا . أحدهما هو العلاقة المرتبطة بالأنظمة المختلفة ، والتى تبدو على أنها منفصلة . وفى الواقع فإن علم الاجتماع ، والأنثروبولوجيا ، والاقتصاد ، والاقتصاد التاريخى ، والتاريخ والجغرافيا ، هى كلها علوم منفصلة ، وكلما استمريت فى القراءة فسوف تكتشف أن هذا الانفصال يعد عائقا للفكر ، ونعتقد أنها مشكلة لها جوانب عديدة ، فنحن نحرم نتيجة لهذا الانفصال من كثير من الأفكار

= البرجوازية ، واعتبر ماركس الرأسمالية نتيجة من نتائج التقدم التكنولوجى والتوسع الصناعى مما دفع البرجوازية إلى تبنى نمط الانتاج الرأسمالى والتوسع فيه . ثم ظهور نمط السوق الدولى ، والتحضر وهجرة العمالة وخضوع الريف لتحضر ... إلخ ولقد تبنى كل من ماركس وفيبر إتجاها واحدا وهو اتجاه تاريخى – بنائيه . إلا أنهما انطلقا من وجهة نظر متعارضتين فى تفسير نشأة هذا النظام – النظام الرأسمالى – فبينما درس فيبر العلاقة بين الدين والاقتصاد أى العلاقة بين الأفكار الدينية من ناحية ، والاتجاه نحو النشاط الاقتصادى من ناحية أخرى ، بفرض فهم المظاهر الأساسية للنظام الاجتماعي والاقتصادى للغرب . أما ماركس فقد نظر الى نشأة النظام الرأسمالى من خلال النظام الاقطاعى (التقليدى) وظهور المشروعات الرأسمالية وما ينتج من ذلك من آثار على المجتمع والوعى الانسانى ، وتفكك المجتمع الاقطاعى ...
– الحسينى : التنمية التخلف ، مرجع سابق ، ص . ص ٢٩ – ٤١ .... [المترجمة] .

والمعلومات التى يمكن أن تساعدنا فى فهم المشكلة التى نبحثها . وعلى سبيل المثال : إذا كنا نبحث فى التساؤل : لماذا تحدث الهجرة العمالية ؟ فسنجد أنفسنا أننا نحصل على إجابة جزئية إذا ما نظرنا أو بحثنا فقط فى الأسباب الحالية كالبطالة . لكننا نجد إجابات أكثر إقناعاً لهذا السؤال إذا ما فحصنا وبحثنا فى التاريخ الاقتصادى لمنطقة معينة ، لكى نفهم سبب وجود بطالة هناك ، سواء كانت بطالة طويلة المدى أو قصيرة المدى .

علم اجتماع التنمية :

إن هذه المناقشة تبدو أنها أتت من بعيد عن طريق علم اجتماع التنمية ، ولكننا نبحثها من خلال هذه الأنواع من الأسئلة التى يهتم بها علم الاجتماع ، وخاصة مداخل التنمية الاجتماعية فهى تهتم بطرح السؤال عن كيفية حدوث التغير الاجتماعى ، وما نقصده بالتغير الاجتماعى وكيف يؤثر فى الأفراد والمجتمعات ، وأخيرا كيف يتأثر به العالم «كنسق اجتماعى» .

علم الاجتماع والتنمية والتطور :

هناك خطوط متوازية بين العمالة المهاجرة فى أفريقيا المعاصرة والقرن التاسع عشر فى أوربا ، ولكن لا يمكن القول بأن كليهما عنده نفس الأسباب أو التأثيرات ، ولكنها تظهر أن بعض الخبرات الإنسانية لعمليات الهجرة يمكن أن تكون متشابهة . ولكننا نجد فى التغير الجذرى الحادث فى أوربا فى بداية القرن التاسع عشر بداية ظهور علم الاجتماع وبالتالى نجد جذورا لعلم اجتماع التنمية ، كما نجد حالات متشابهة . فهناك أفكار ونظريات وتحيزات وآراء من مفكرى القرن التاسع عشر ومازال تأثيرها موجوداً علينا ، وتؤثر فى الطريقة التى نفكر بها فى مشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية . على سبيل المثال فإن بعض الناس يتحدثون عن تطور المجتمع فى دول العالم الثالث * . إن كلمة التطور كلمة مفضلة فى القرن التاسع عشر ،

---

* هناك تحفظ يجب أن يؤخذ على مفهوم الدول النامية فهو لا يصنف مجتمعات أو دول متشابهة فهناك تفاوت فى التاريخ بين هذه الدول بالرغم من أنها جميعا تشترك فى تاريخ واحد وهو خضوعها للاستعمار ، كما أنها تحررت وحصلت على استقلالها فى فترة تاريخية واحدة تقريبا ولكن لم تسلك كلها مسلكاً واحداً فى بناء مستقبلها فمنها من سلك الطريق الاشتراكى ومنها من تبنى النظام الرأسمالى ومنها من لم يحدد هويته حتى الآن ... إلخ . كما أنها تختلف فى مواردها سواء كانت اقتصادية أو بشرية أو تكنولوجية . كما أنها تختلف فى مستوى التطور الاجتماعى ، والثقافى ولذلك كان لابد وأن تختلف أساليب وتصورات التنمية تبعا لهذا الاختلاف وكان لابد من دراسة تجارب التنمية المختلفة بحيث يختار من التجارب ما يوائم ظروف كل مجتمع على حدة [المترجمة] .

ثم تغيرت حديثا وأخذت إسم نظرية التطور التى يقصد بها أشياء كثيرة من الحياة السياسية من خلال تنمية الأسرة ، وكذلك نفكر أيضا فى استخدام المصطلحات الحديثة والتقليدية عندما نطبقهما على التنظيمات الاجتماعية وطريقة السلوك فى المجتمع ، أليس ذلك استخدام مقنع لفكرة التطور فى الواقع ؟ إن الفكر الغربى الإجتماعى والحياة الغربية بالرغم من اهتماماتها بما يعد حديثاً أو جديداً نجد أن الإنسان يتأثر بأفكار القرن التاسع عشر . إن ذلك لا يدهشنا كثيراً ، لأن العالم الذى نعيش فيه والمعروف بسرعة اتصالاته على نطاق واسع ، ووجود كثير من المنظمات ، والتجارة الدولية والأعمال البنكية الدولية ، والتغير التكنولوجى السريع ، خلق فى خلال الـ ١٥٠ سنة الماضية إحساس عام بذلك .

ولذلك لابد أن نحس بضرورة فحص علم اجتماع التنمية ، ونضع فى عقولنا فكرة واضحة لما كان يفكر فيه علماء الاجتماع الأوائل ، وما كانوا يرغبون فى قوله . ومن المفيد أن نحاول معرفة معني كلمة نظرية لأننا سوف نتكلم بعد ذلك عن النظرية الاجتماعية .

وهناك نقطة هامة تلاحظها عن أى نظرية ، وهى أنها تضع جدولا للمناقشة والبحث ، وهى دائماً تعرض ما هو مناسب وغير مناسب ، ومن ثم فالأسئلة التى تطرح دائماً تعتمد على النظريات التى نبدأ بها ، فالإطار ١ - ٤ يبين أن هناك معانى مختلفة ومستويات فى الطريقة عندما نستخدم كلمة تنمية . وكل نظرية من تلك النظريات هى نظرية مختلفة .

إطار ١ - ٦ : النظرية :

النظرية فى حديثنا اليومى نجد أنها تتخذ شكلا دقيقا وفى العلوم دائما تطرح كثيراً من الأسئلة بطرق خاصة تحلل معانى الكمله بطرق معينة أو تشمل بعض الاحتمالات وتستبعد الأخرى . وهناك دائما من يقول إن النظرية ليست دائما حقيقية ، وينظر إليها على أنها شكل معين من اللغة والتى تمثل اسكتشاف تحدد لنا الكلمات التى نستخدمها لمناقشة مشكلة ما معينة وطرق البحث أو الطرق التى يمكن اختبارها ، واللغة التى تصفها نختبرها عن طريق التجربة . ويمكننا التساؤل عما إذا كانت اللغة الإنجليزية والروسية أو السواحيلى حقيقة أم لا ، ولذلك نجد أنها مترادفة للسؤال الآتى : هل هناك نظرية لغوية نستخدمها فى علم الاجتماع أو فى أى مكان أو مجال للدراسة ؟ ولكن السؤال يتم إذا ما كانت كافية لأداء الوظيفة المطلوبة منها . إن اللغة الإنجليزية ليست جيدة فى وصف

الحياة العالمية ، وعلى سبيل المثال : لا تستطيع اللغة الإنجليزية وصف شعب «الكنجا» * في جنوب إفريقيا ، لأنها لم تخلق لكى تؤدى مثل هذه الوظيفة . ويشابه ذلك ، اللغة النظرية (Theoretical Language) التى يقوم بها علماء الاجتماع الوظيفيين ، حيث يجدون صعوبة فى وصف المجتمع الذى يمر بالتغير السريع ، أو إيجاد إحساس بالمجتمع . وفى هذه الحالة تصبح اللغة الإنجليزية ولغة الوظيفيين غير كافية لهذه الأهداف . وحينئذ تصبح المشكلة أكثر تعقيدا ولكنها موضع اهتمام فى العلوم الإجتماعية ، لأن النظرية الاجتماعية من نتاج أعمال الناس وأفكارهم معا ، فهى تعكس الخبرات والآراء الخاصة لهؤلاء الذين قد انتجوا هذه النظريات ، وهى تعضد دائما المعتقدات التى هى نتاج الجماعة أو الجماعات من رؤيتهم للمجتمع وكيفية عمله . ويمكننا القول بأنها تضفى شرعية على مراكزهم ، كما قال عالم الاجتماع «كارل مانهايم» لتصبح «أيدولوجية» و«نظرية» . إن ما ينتقل من النظرية إلى «الأيدولوجية» وقع فى كل العلوم وليس فقط فى علم الاجتماع (تذكر جاليليو) وهناك رغبة دائمة فى الوقوع لأول وهلة بأنه شىء حقيقى ونوافق على أنه ذو قيمة ، أو شىء لا نتفق عليه إطلاقا ولا نعرف حقيقته النهائية . وإذا أردت أن تقرأ شيئا من هذه المشاكل يمكنك أن ترجع إلى :

G. Rose, Deciphering Sociological Research, Macmillan, London, 1979.

تدعونا نظرية التطور إلى النظر للعالم بطريقة معينة ، ونسأل أسئلة بعينها وليست أسئلة أخرى . وعلى سبيل المثال : هناك نظرية للتنمية السياسية خاصة بالمدخل التطورى ، وهذه النظرية تقول إن المجتمعات تمر من خلال العديد من المراحل ، وتبدأ بحكم الفرد الذى يأمر الجميع ، ويحدد لهم ما يجب أن يعملوه . ثم تنتقل إلى فترة متوسطة أو مرحلة متوسطة إلى نسق يوجد به شكل ما من البرلمانات والديموقراطية مثل ما يوجد فى أوربا الغربية . ويمكننا فهم هذا النوع من التعاقب التنموى والتتالى التاريخى التطورى ، فهى فى الواقع عبارة عن حكم يتخذ ويوضع عن تنمية القيادات السياسية فى أجزاء كثيرة من بلاد العالم . وعلى سبيل المثال : فى أوربا الغربية وشمال أمريكا نعتقد أن نسقنا نسق ديموقراطى ، وهو الأفضل ، وأن

* انظر شرحاً فى إطار ٨ – ٤ .

هذا النوع من الديموقراطية هو نهاية ما أنتجته عمليات طويلة من التطور ... ومع ذلك ففى كثير من أرجاء أفريقيا يعتقد الناس أن نسقنا ضد الفقير ، وأن نظام الحزب الواحد للدولة هو أكثر ديموقراطية ، لأنه يضمن أن الفقير سيمثل بطريقة كافية .

علماء الاجتماع الأوائل :

لقد نظرنا نظرة قصيرة أو مختصرة إلى النظرية وطبيعة علم اجتماع التنمية . ويمكننا الآن أن نتفحص الجذور العلمية للموضوع ونموها حتى الآن . وينبغى أن نتذكر دائما أن النظرية التى بدأنا نقاشها قد نشأت خلال قرن آخر ، وهناك استمرار لكل من طابع أو أسلوب النظرية والمشاكل التى من المفروض أن تفسرها النظرية .

إن المائة عام من عام ١٧٥٠ - ١٨٥٠ كانت عبارة عن حقبة ضخمة للتغير فى أوربا الغربية - تغير فى طرق حياة الناس وطرق تفكيرهم ، والتغير الهام بالنسبة لنا هو طرق تفكيرهم عن كيفية حياتهم أو كل الحقائق عن الصواب والخطأ ، والأخلاقيات وغير الأخلاقيات ، أو الصدق أو الكذب وكانت تتغير كما كان التغير فى الإنتاج الزراعى أو الدورة الزراعية التى حدثت على نطاق كبير والتى تركزت فى المدن والمصانع مستخدمة العمال المأجورة . فنجد أن المؤرخ الفرنسى «فيلمان برجواى» يعبر عن طعم هذه التغيرات فى الفقرة الآتية : فيقول إن تغير وجه المدن كمدينة لندن وباريس قد انعكس فى طريقة الحياة وشكل الحياة للآخرين ، فكان عالم النظام القديم ريفياً إلى حد كبير ، وهذا الانتقال كان انتقالا بطيئا وأحيانا ينهار ويقضى عليه تماما .

(Brandel, F., The Structure of Everyday life, William Collins & sons, 1981)

وينبغى أن نلاحظ شيئين فى هذه الفقرة .

أولا : يتحدث «برودل» عن أوربا الغربية بأنها مركز التغيرات ، وأن هناك تغيرات أخرى بدأت تؤثر وكانت تحدث فى نفس الوقت فى العالم ككل . ولذلك نجد أن برودل يستخدم المصطلح غير العادى «فن الحياة» . ونجد شيئا غير عاد فى هذا المصطلح قد يلفت نظرك ، وهو

أن النسيج أو البناء للحياة اليومية قد بدأ يتغير ، وبكلمة أخرى نجد أن المجتمع ليس وحده يتغير ، إلا أن الإحساس بمثل هذا التغير قد يقع على الأفراد أنفسهم . وعندما تزور مكانا جديدا أو ربما بلداً جديداً أو جزءاً غير مألوف لا يشابه وطنك فإنك تشعر بالغربة . تخيل هذا الشعور يكبر عدة مرات أو مئات المرات ، فإنك تحصل على بعض أفكار عن ما يجب أن تكون عليه الحياة لكثير من الناس خلال هذه الفترة .

وهناك مجموعات مختلفة فى المجتمع تمر بمثل هذا الشعور وهذه الخبرة ، بل وتتجاوب معه بطرق مختلفة ، وتتأثر به هذه المجموعات جذريا - مثل الناس الذين طردوا من أراضيهم بتغير الانتاج الزراعى ، ولإنتاج وإحلال الآلة ، والدورة الزراعية ، والجديد ، والتركيز الأكبر على ملكية الأراضى -نجد هؤلاء الناس قد مروا بتجربة مشابهة للعمالة المهاجرة ، وكان رد الفعل عندهم مختلفا في مواجهة التغيرات وذلك عن طريق الثورات والتمرد بطرق مختلفة أو بتكوين هيئات تقدم مساعدة لمختلف المدن وبكلمات أخرى لخلق عالم جديد أو فن جديد للحياة . هؤلاء هم أقل تأثيرا لأنهم لا يحاولون الكفاح لكى يعيشوا ولكنهم دائمو التفكير فى التغير ، يحاولون التفكير دائما وليست محاولة إيجاد نوع من العمل أو الحياة العملية ، ولذا فهم ينتجون النظريات .

أوجست كونت :

إن الارستقراطى الفرنسى «سان سيمون» (١٧٦٠ - ١٨٢٥) ومن تبعه ، وتلميذه أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) يعدون كعلماء اجتماع التنمية الأصليين ، وهذه حقيقة الأخير بوجه الخصوص . وتفسر نظرية كونت نوعين من الأفكار ، والتى كان لها تأثيراً فى عصره ، والتى ظهرت (فى أشكال مختلفة) فى عصرنا . وهذه أفكار التغير المرتبطة بالتقدم من خلال تطوير العقل البشرى ، وعلى وجه الخصوص التطور فى الأفكار العلمية (أنظر إطار ١ - ٧) .

إطار ١ - ٧ كونت ومحاولة لإعادة تنظيم المجتمع :

نتيجة للتقدم العلمى ، اعتقد كونت فى أمكانية الوصول إلى المجتمع المتجانس المنسجم ، وذلك عن طريق السياسة العلمية الاجتماعية . فكتب : قبل أن تأتى العلوم الوضعية لأوربا الخاصة أو العامة ، سواء كانت علوما دينية أو ميتافيزيقية ... إننا نجد أن العلوم الطبيعية

قامت «أكثر فأكثر» على الملاحظة والتجربة ... إن العلوم قد نجحت وأصبحت أكثر إيجابية ، لأنها ترتبط بالإنسان . وعلى ذلك فقد أصبح علم الفلك أولا ثم الطبيعة وأخيرا الكيمياء جميعها موجودة دائما فى حياتنا اليومية . والتأثير الدينى والميتافيزيقى على مثل هذه الموضوعات ، قد دمر أو قضى عليه المتعلمين ...

إن تحقيق مثل هذه الظروف كان من شأنه أن يبعث على إيجاد نوع من التنمية الروحية التى تتناسب والنسق الاجتماعى الجديد ... (كونت وتقييم التاريخ الحديث

(Comte, A., Abrief Appraisal of Modern History

وفى النهاية نجد أن الجميع يكونون نظرية إيجابية عملية فى السياسة ، واضحة فى الممارسة ، ويمكن أن تتعرف على نسقنا الاجتماعى ويؤدى إلى تناسق مع معرفة أو معلومات الدولة فى الحاضر . وبمتابعة انعكاس الفكر سوف نصل فى النهاية إلى النتائج التى يمكن صياغتها فى مفهوم فردى : إن رجال العلم فى عصرنا الحالى يجب أن يرتفعوا بالسياسة إلى مرتبة العلم والملاحظة ، أى أنه يرى أن رجل السياسة يرتقى إلى مستوى التفكير العلمى ، ولا سيما الجزء الخاص بالملاحظة .

(Comte, A., Plan for Reorganising Society) (Both of these entracts are in Fletcher, R., the Crisis of Industrial Civilisation, Heinemann Educational books, 1974. p.9 & p.134.)

اعتقد كونت أن العقل البشرى والمجتمع الإنسانى والمعرفة الإنسانية قد مروا من خلال عمليات التنمية الاجتماعية والتغير من نقطة ليست علمية ومن منطلق السلطة ، وما يسميه ، وراء الطبيعة . (المعنى قائم على العقيدة والإيمان ، أى المصادر غير الإنسانية) حتى وصلت إلى المعرفة العلمية العقلانية ، والتى أسماها (الوضعية) ، والتى يمكن تطبيقها فى كل كثير من المشكلات الاجتماعية .

وهكذا نجد أن فكرة الضبط العلمى أو على الأقل التوجيه العلمى ، تظهر مبكرا فى حياتنا الاجتماعية من خلال تطور أو نمو علم الاجتماع .

وفى الواقع اعتبر كونت أن علم الاجتماع هو (ملكة العلوم) مقدماً «الحقيقة» عن كيفية تنظيم المجتمع ، لكى يكون خاليا من الصراعات والاضطرابات ، والتى كانت واضحة

أنذاك ، والتى استمرت حتى الآن . (أنظر إطار ١ – ٨) .

إطار ١– ٨ المشاكل والألغاز Problems and Puzzles

إن المشاكل الاجتماعية تستحق قليلاً من التفكير لحلها ، كما لو كان المرء يحل مسابقات الكلمات المتقاطعة ، ليصل إلى حل واحد صحيح ، إنه من السهل أن نخلط معنى كلمتين ، ولكن فى الواقع يكونان مختلفين ، بالرغم من أننا نستخدمهما بالتبادل . وإنه لمن المفيد أكثر قولنا أن الإرتباكات والمتاهات تكون أشياء قد تعطينا الحل الصحيح أو الخطأ عند اتخاذها للحلول ، إلا أن المشاكل فى الواقع لا تعنى إعطاء حلول كالمسابقات ، فهى تحتاج إلى تفكير واستقرار ونتائج مرضية ، أكثر من أنها تكون صحيحة أو حقيقية . ومعظم الأشياء التى نهتم بها فى العلوم الاجتماعية هى مشاكل وليست مسابقات أو ألغاز لسبب بسيط ، وهو أن الجنس البشرى يرى الأشياء دائما من نقاط أو زوايا مختلفة ، أو حتى يعرف المشاكل بطريقة مختلفة ويصل إلى حلول ، أحيانا ما تكون مرضية أو غير مرضية . لاحظ أن «دوركايم» يرى أن علم الإجتماع لابد أن يدرس الظواهر دراسة «موضوعية» كأشياء خارجة عن ذاتنا(as external things) ، ويمكن هذا أن يكون مفيدا فى الأبحاث وفى الطرق المستخدمة . ولا يمكن أن تكون مفيدة كطريقة لمعرفة العالم الاجتماعى معرفة نهائية . (الحقائق الاجتماعية) ، ويراها الناس على أنها أشياء ولكن واقعها لا يمكن معرفته نهائيا ، ولا يمكن تعريفه من الخبرة الاجتماعية ، حيث أنها نتاج معيشة من خلال الضمير الإنسانى ، والضمير هو نتاج التفاعلات البيوجرافية والتاريخ ، والتى سبق إن لاحظناها . إن معاملة المشاكل الإجتماعية كمسابقات أو ألغاز أو اعتبارها «أشياء» بالنسبة للعالم غير مثيرة للنزاع ، ولذا نجده يقع فى مصيدة «اليوتوبيا» أو المثالية . إنها الحقيقة الاجتماعية التى تقول : إنه نوع من الكمال يؤدى إلى الكمال .

رأى كونت فى علم الاجتماع أنه يشتمل على صورة مضللة (انخداع) وأن من خلال الدراسات التطبيقية يمكن أن نصل إلى علم أفضل وأكثر تقدما وأن يؤدى إلى نوع من الانسجام أو التوافق الاجتماعى .

اليوتـــوبيا :

هذا الاتجـاه من المثـاليـة ، فى الفكرة الكاملة عن الوجـود الاجـتـمـاعى الخـالى من الصراعات ، وربما نجده فى النظريات الاجتماعية للتغير والتنمية . "كارل ماركس" و "فردريك إنجلز" فى محاولة لضرب هذا الاتجاه فى الفكر الاجتماعى والسياسى لعصره ، كتبا مقالة تسمى «الإشتراكية – العلمية والمثالية» وهى محاولة لاظهار الاختلافات بين العلوم الاجتماعية التى تحلل العالم بطريقة إيجابية وبين العلوم التى بدأت من رأى ما يجب أن يكون عليه العالم ، ثم بعد ذلك يوضح كيفية الحصول على ذلك . إنها مشكلة صعبة ، ولا نستطيع الهروب منها ، لأنه بعد مائة سنة هاجم «داهرندوف» نفس المشكلة بشكل آخر فى مقالة له بعنوان «نتاج اليوتوبيا» ، والتى انتقدت الوظيفية فى المصطلحات الآتية :

كل قادة أو مفكرى اليوتوبيا من بداية جمهورية "أفلاطون" إلى عالم "جورج أورويل" الجديد الشجاع سنة ١٩٨٤ نجد أن هناك عنصرا واحدا مشتركا . فهى كلها مجتمعات يغيب عنها التغير ، سواء إذا ما فهم على أنها دويلات منتهية وقمة التنمية التاريخية ، أو كحلم رومانسى عاطفى . إن نسيج اليوتوبيا لا يستطيع التعرف على تدفق العمليات التاريخية التى لا تنتهى .

(Dahrendorf, R., Out of Utopia, in his Essays in the Theory of Society, Roudedge and Kegan Paul, 1968 P.105.

إن هذا الرأى المهتم باليوتوبيا ، والذى يبدو كذلك (وإن يكن له أشكال مختلفة) لدى كل من علماء الاجتماع الأوائل مثل "كونت" والوظيفيين مثل "تالكوت بارسونز" فإنه يبدو لمن المفيد أن نفهم شيئا عن النظرية الاجتماعية نفسها ، والتى نمت فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

سبنسر وتونيز ودوركايم :

خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت نظريات كثيرة ، حاولت أن تعطى معنى أو تفسيراً لعمليات التغير حولها . إن المشكلة التى خدعتهم هى الطريقة التى ظهر بها المجتمع على أنه أكثر تعقيداً مع وجود تخصصات عظيمة فى كل ما قام به الأفراد ، وما قامت

به الجماعات الأخرى من المجتمع . وهكذا نجد "هربرت سبنسر" (Herbert Spencer) (١٨٢٠ – ١٩٠٣) ليس فقط يقارن المجتمع على أنه تنظيم عضوى ، ولكنه يصر على أن (المجتمع هو تنظيم) – وهو عنوان الفصل الثانى من كتابه بعنوان (تطور المجتمع) (انظر إطار ١ –٩) لقد فهم "سبنسر" "Spencer" مصطلح التنمية على أنها تنمية من الداخل .

إطار ١ – ٩

سبنسر والتنمية والاختلافات

"اعتبر "سبنسر" (Spencer) أن المجتمعات والتنظيمات العضوية تتبع نفس قوانين النمو فقال : إنها ... خاصية الأجسام الاجتماعية أو المنظمات الاجتماعية ، وتشابه الأجسام الحية ، حيث أن الأجسام تنمو وتتزايد فى الحجم ، فهى تزداد فى البناء ، كما يحدث فى تكاثر الخلايا ، والجنين ذو المتسوى العالى له انقسامات قليلة معروفة ، وعندما تأخذ شكلا واضحا نجد أن أجزاءها تتكاثر وتتعدد وتختلف . وهكذا كما يحدث فى المجتمع . وفى البداية فإنها لا تتشابه مع مجموعاتها ، فهى غير واضحة فى العدد والدرجة ، ولكن بالنسبة للناس فهناك انقسامات فرعية تصبح متعددة وكثيرة العدد وأكثر وضوحا بالإضافة إلى ذلك فى التنظيم الإجتماعى كما فى تنظيم الفرد ، فأسباب الاختلافات تتوقف فقط عندما يكتمل النمط أو الطابع والتى تحدد النضج والتقدم والاضمحلال ... فالنمط الأدنى (lowest) من الحيوان نجده كله معدة ، وكله سطح متنفس ، وكله أطراف ... أى نفس الشىء فى المجتمع ... ففى المجتماعات البسيطة أو البدائية نجد جميعهم محاربين ، وصيادين ، وبنائى أكواخ ، وصانعى آلات ، وكل قسم يعمل لنفسه للحصول على احتياجاته ... إن التنظيم الاجتماعى ، وتنظيم الفرد كله متاشبه تقريبا . وفى الثدييات نجد أن الرئه تتسبب فى أن يقف القلب ... وإذا ما فشلت المعدة تماما ... فكل الأعضاء الأخرى ... تتوقف عن العمل أو الأداء ... وهناك اعتماد متبادل بين كل الأجزاء ، وهى خاصية ضرورية . وفى مجتمع نجد أن العمال فى الحديد يتوقفون إذا ما توقف عمال المناجم عن الإنتاج بالمنجم ، وكذلك صانعو الملابس يتوقفون إذا ما توقف صانعو الغزل والنسيج . ولذا نجد أنفسنا مضطرين للقول بأن الاعتماد متبادل بين كل الأجزاء"

(Spencer, E., The Evolution of Society, University of Chicago Press, Chicago and London, 1967 PP.3- 5) .

ويتبنى (فرديناند تونيز) ١٨٥٥ – ١٩٣٦ رأيا مماثلا عن التنمية كتنمية من الداخل ، حيث نجد أنه قد اهتم أساسا بالتغيرات فى الأخلاق والمبادىء على أنها أساس المجتمع ، والصفات التى تسود بين أعضاء المجتمع . كما كتب عن الانتقال التدريجى غير المستوى ، والذى لخصه فى مصطلحات تمثل نمطين لقطبين ، وسمى هذه الأنماط بالأنماط بالقطبية ، والتى لا تشابه الأنماط المثالية لـ ماكس ڤيبر" الذى سماها الجيماينشافت والجيزلشافت (Gemeinschaft and Gesellschaft) *. وهذه الكلمات لا يمكن ترجمتها مباشرة إلى الإنجليزية ، ولكنها تستخدم بمعنى المجتمع «المحلى» والثانية «التعاقدى» هذا الانقسام يعطينا نمطين مختلفين ويجذب الإنتباه إلى فكرة كانت موجودة فى الماضى فى بعض أجزاء أوربا وأماكن أخرى فيما وراء أوربا ، والمجتمع كان وما زال منظما فى ضوء مصطلحات مترابطة . وهناك علاقات متداخلة مباشرة وشخصية ومشتركة فى كثير من العقائد . وكل فرد يعرف ماذا يحدث ، فيرى جيرانه دائما يتبادلون معه الأفكار ويتخذون معه القرارات ، وقد لايتفق معهم . وإذا لم يعرف الناس بعضهم البعض ، فإن القيم العريضة والاتجاهات تجمعهم ، وعلى النقيض فإن المجتمع التعاقدى مجتمع معقد ، ويتواجد فيه كثير من الوسطاء بين الأفراد والمجتمع الذى ينتمون إليه ، هذا التعقيد فى العلاقات يسمح بنمو الفوارق بين الأفراد .

إميل دوركايم "Emile Durkheim" (١٨٥٨ – ١٩١٧) يعالج دوركايم نفس المشكلة وبطريقة مشابه ، ويتكلم عن نمطين للتضامن الاجتماعى ، ويعنى بكلمة التضامن : المعتقدات الأخلاقية والأفكار التى تكون الإحساس الذى يسود فى الحياة الاجتماعية ، والتضامن

---

* مصطلح "الجماعة المحلية gemeinschaft" يستخدم ليصف جماعة أو نسقا محليا ، هذه الجماعة تسيطر عليها الإرادة الطبيعية والتى تقوم فى التجمعات التى تتميز علاقاتها بالتلقائية والعاطفية وتقوم على التفاعل بين المراكز والأدوار ، ويشير تونيز فى مصطلحه هذا الى نموذج مثالى للبناء الاجتماعى وإلى توجيه قيمى بحيث يتعذر أن نجده متحققا بصورة واقعية ، كما استخدم تونيز عند استخدامه لهذا المصطلح المصطلح المقابل له وهو المجتمع gesellshaft وهو يسيطر عليه الإرادة العقلية – أى المجتمع – وإن العلاقات الاجتماعية به أصبحت وسائل لغايات معينة تتميز بدرجة عالية من الموضوع وتستخدم لتحقيق أعلى مستويات الكفاءة . ولقد تأثر تونيز بأعمال "هنرى مين" وبخاصة مفهومية عن المكانة والتعاقد . على أن فهم المصطلحين عند تونيز يعتمد على فهمنا لمفهوم الإرادة عنده ، فيقول "هيبرل" إن العلاقات الاجتماعية عند تونيز تعبر عن الإرادة ، وتشتمل هذه الارادة على عناصر هامة فى الحياة الاجتماعية مثل القيم ، والمعايير ، والغايات ، والمعتقدات ، فضلا عن أسس التدرج الاجتماعى . ويرى تونيز أن موضوعى الجماعة المحلية والمجتمع لا يشيران فقط إلى ظاهرة المجتمع الإنسانى بل إنهما يعكسان مراحل تطورية للنمو ، فالمجتمع ينبثق حينما ينفصل الاشخاص ، وتتحرر الخدمات من إطار الجماعة المحلية ، خاصة بعد أن تباع وتشترى السلع فى الأسواق .

– محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٧ .

الميكانيكى (خاصية للمجتمعات ماقبل الصناعة) ويقال إنها قائمة على الإتفاق الشخصى بين الناس ، والتضامن العضوى مستمد من القدرة على تحمل الخلافات ، والصراعات ، والتى يمكن تخفيفها من خلال مجموعة من التنظيمات ، كما فى المحاكم واتحادات التجار والأحزاب السياسية . وفى مجتمعات ما قبل الصناعة يوجد القليل ، أو لا يوجد انقسامات فى العمل فالكل يعمل بطريقة مشابهة ويستهلك بنفس الطريقة ، فلا يوجد هناك اختلافات إلا القليل فى الرأى أو الشخصية الفردية . ولذلك "دوركايم" يقول : (كلما كان المجتمع بدائيا كان هناك تشابه وتوازن بين أفراده أو أعضائه) (Durkheim, E., 1965 p. 133) واستمر فى وجهة النظر هذه إلى أن وصل إلى النقيض حينما كتب أن بين البربر يوجد نوع من الوجوه الغريبة عن بقية أفراد القبيلة ، وهى وجوه قليلة وشاذة . (Durkheim, E., 1967, p.133.) ويمكننا أن نلقى نظرة عريضة فى تطبيق هذا الرأى ، إلا أنه ينبغى لنا فى البداية محاولة فهم المجتمعات الأخرى ، وما يمكن أن تكون عليه .

المجتمع القائم على التضامن العضوى *

يرى "دوركايم" عكس النمط الأول : فالتضامن العضوى هو سمة من سمات المجتمعات التى يوجد بها انقسامات فى العمالة ، حيث الإنتاج والتوزيع والاستهلاك وتقوم به كثير من الطرق المتخصصة ، أما الأفراد فهناك فروق شديدة بينهم سواء فى الافعال أو الاعمال . إنه نوع من المجتمعات التى يعرفها معظمنا إنه المجتمع الذى يوجد به خلافات عديدة فى الرأى وفى مختلف أنواع الموضوعات – والذى نراه دائما سائدا فى العالم العقلانى .

وقد نما هذا النوع فى أوربا وشمال أمريكا خلال القرن التاسع عشر . إنه على النقيض بين هذا العالم والعالم الآخر ، والذى يرى "دوركايم" والآخرون الذين يحاولون أن ينتجوا لغة نظرية تصف هذه المجتمعات (أنظر ١ – ١٠) ،ولكن الطريقة التى وضعت بها المشكلة ، والغرض

---

* وقد أشار إلى هذا التقابل الذى حدده تونيز بين نوعى العلاقات الاجتماعية كثير من مفكرى القرن التاسع عشر ، ممن عنوا بنشأة الحضارة الصناعة ، وأن كان الكثيرون مالوا إلى القول بأن العلاقات بالمجتمع المحلى تقوضت بفعل التطورات الاجتماعية الحديثة فهنرى مين على سبيل المثال ميز بين المجتمعات التى تقوم على أساس المكانة Status ، والمجتمعات التى تقوم على أساس العقد ... كما أن كلا من "هربرت سبنسر" ودوركايم قد أشارا الى مثل هذا التقابل ، ويرى عدد من الدراسين أن مثل هذا "التعارض" غير مقنع لأن كل التنظيمات التى تندرج تحت نموذج المجتمع ينطوى على عناصر من نموذج الجماعات المحلية ، ومع ذلك فإن التقابل بين هذين النموذجين له أهمية كبيرة فى تاريخ التفكير الاجتماعى .
محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ . [المترجمة] .

الذى بدأوا به يحدد – على الأقل جزئيا – الإجابة . (أنظر إطار ١ – ٦) وهذا واضح فى اثنين من المقتطفات "لدوركايم" والتى قد قرأتها لتوك وهو يكتب كمطور اجتماعى .

إطار ١ – ١٠ لغة "دوركايم"

أن دوركاييم قد استخدم مصطلح "بدائيا" وكتب أن المجتمع "البدائى" هو اناس يتسمون بتشابه جسمانى إلى حد كبير ، وهاتان الرؤيتان تثيران المشكلة الآتية :

أولا : لم يعرف دوركايم شيئا عن المجتمعات غير الأوربية ، وكان هذا بالطبع مستحيلا إذا ما ألقينا نظرة على المجتمعات غير الأوربية فى عصره ، وعلى سبيل المثال فقد سافر إلى أستراليا لدراسة المواطنين الذين قد استعان بهم لمساندته فى هذا الرأى . وفى الواقع فإن معلوماته عن كثير من هؤلاء الناس قد جاءت بطريقة غير علمية ، لأنها عبارة عن تعليقات من "مسافرين" .

وثانيا : ربما يقال إن هؤلاء الناس يمكن وصفهم بأنهم بدائيون – تذكر العلاقة الساحرة بين منتجى النظريات ومكانتهم فى الوقت التاريخى البيوجرافى ، وتذكر أن "دوركايم" كان يكتب فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا وانجلترا لم تمارسا محاولات للإمبراطورية .

وثالثا : يرتبط بالإستخدام السهل للمصطلح "بدائى" فلابد أن تعرف لب التطور لعمل "دوركايم" وأعتناقه "للتقدم" . وهكذا نجد أن "دوركايم" وكثيراً من مفكرى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين "وعلم الاجتماع" لم يتعرضوا "للتغير" كما لم يدرسوا ولم يتساءلوا عن الرحلة التاريخية "للتقدم" والتى انتهت فى أوربا . وبكلمات أخرى ، لقد رأوا عالمهم والتنظيمات السياسية والامبراطوريات كدليل أو كحقيقة لعمليات التطور الاجتماعى .

كان الأوربيون فى القرن التاسع عشر متحمسين ومنظمين "معارض عظيمة" ، لنوع أو آخر لإظهار تقدمهم . فقد بنيت "كريستال بالاس" فى لندن لهذا الغرض . وهذه المعارض كانت دائما عبارة عن قطاعات تمثل التقدم ، لأنه من المفروض أنها تؤثر فى الناس وخاصة المستعمرات التابعة للإمبراطورية . والهدف هو وضع الحقائق أمام الزائرين ، لإظهار المستويات المختلفة للحضارة للمجتمع الإنسانى ، وإنصاف أو إحقاق للحق " لدوركايم " كغيره من المعاصرين . نجد "ماكس ڤيبر" لديه إحساس قوى بما يكلفه التقدم الإنسانى – التفكك الاجتماعى والاضطراب الفردى – لكن هذا لم يلق لها بالا فى المجتمع ، ولم ينظر إليها على

أنها مشاكل للمجتمعات البدائية الموجودة فى المستعمرات .

التطورية والوظيفية

من كتابات التطوريين ، كان "دوركايم" مفتاح المفكرين فى التنمية الوظيفية والذى يشرح ذلك فى علم الاجتماع . ومثل " سبنسر " "Spencer" فقد اعتبر أن المجتمع يمكن أن نفكر فيه كعضو . هذا النوع من النظريات الاجتماعية تسمى "الوظيفية" وتلخص فى المقتطف الآتى : إن كلمة "وظيفة" أو "أداء" تستخدم بمعنيين مختلفين . ففى بعض الأحيان هى تقترح وجود نسق لحركات حيوية دون الرجوع إلى ما يلى ذلك ، وبالنسبة للآخرين تعبر عن العلاقة الموجودة بين هذه الحركات والاستجابة لاحتياجات العضو . وهكذا يمكننا أن نقول وظيفة الهضم والتنفس وخلافه ، ولكن يمكننا أيضا أن نقول إن الهضم نفسه له وظيفة ، وهو تحويل الطعام إلى سوائل لتعويض ما يفقد ، أما عملية التنفس فلها أيضا وظيفتها ، وهو تقديم اللازم من الغازات لخلايا الحيوان من أجل الحفاظ على الحياة . أما فى المعنى الثانى فإننا سوف نستخدم المصطلح من خلاله ، وبذا نستطيع أن نسأل ، ما هى وظيفة الانقسامات فى العمل ؟ إنها تبحث عن الاحتياجات التى تستطيع أن تمدها بالأشياء . (Durkheim, E., 1965, p. 49)

من وجهة نظر الوظيفيين أن النظم فى المجتمع وما به من حياة سياسية أو أسرية أو اقتصادية يمكن شرحها فى ضوء الإسهامات المقدمة فى إطار الصحة والرعاية . ومن خلال هذا المنظور يمكن أن يكون المجتمع "صحيا" أو "مريضا" أو "طبيعيا" أو "غير طبيعى" ، وحيث تكون القيمة الأخلاقية غير واضحة . فالمجتمع المريض يكون فى حالة "الأنومى" * . وفى كلمات لدوركايم (السبب ... لحدوث الصراعات الدائمة والاضطرابات المختلفة التى يتعرض لها الإقتصاد العالمى والتى تمثل منظرا حزينا) ، والتى تعد ظاهرة غير صحية ، وهى إما أن تكون ضغوطا أو لتقلل الحرب بين الرجال .(Durkheim, E., 1965, pp. 2-3) وهكذا نرى أن المجتمع الصحى الطبيعى بالنسبة " لدوركايم " هو المجتمع المتجانس . وفى هذا النمط من النظرية ، الصراع مدمر وليس خلاقا . وهكذا نرى أنه رأى لا يتفق بشدة مع الماركسية ، وما يقدمه "دوركايم" ، إذا استخدمناه كملخص فى النظرية الإجتماعية فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إنه لخليط ...

التطورية والوظيفية

لقد اعطيت اهتماما كبيرا "لدوركايم" لما لنظرياته من قوة ، وتأثير على علم اجتماع التنمية ، وما يرتبط بها من مؤلفات خاصة بالأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وحتى منتصف الستينات معظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وحتى بعض من الاقتصاديين الذين يفكرون فى التنمية والتغير ، قد طرحوا بعض الأسئلة بنفس طريقة "دوركايم" . ولا يرجع ذلك لأن له تأثير ، ولكنه أيضا بسبب نوعية هذه الأفكار التى طرحها قد يقبلها الجميع فى ذلك الوقت . تذكر ما قيل مبكرا عن النظرية ذات " القناعة اللغوية " والتى تصف التجربة أو الخبرة والتى تطرح الشرعية القانونية على الوضع السائد لشئون الدولة . ولأن أفكار "دوركايم" كانت سائدة وتعكس ما يراه معظم الغربيين من آراء ومعتقدات ، وخاصة لتحقيق نمط معين من المجتمع (أنظر إطار ١ – ١١) .

(إطار ١ – ١١) دوركايم والعلم

لقد اهتمت مؤلفات "دوركايم" بطرق البحث الاجتماعى والنظريات الاجتماعية ، وقد حاول أن يجعلها "علمية" لكى تكون دافعا ومرشدا إلى العمل ، ولكى تصبح الحياة الاجتماعية وسيلة لتحقيق السعادة – والتى حددها هو بوجود التناغم أو التناسق الاجتماعى . وبذا يكون قد اقتفى أثر "كونت" كما أنه يضرب مثلاً لمن سيأتى بعده من علماء الاجتماع ، محاولا تقديم مشروعات علمية ، والتى هى أساس العمل السياسى وخاصة للسياسى المخلص . وقال : إذا ما فصلت النظرية عن المشاكل العملية ، فلا يعنى ذلك أن أهمل الأخيرة ، بل لكى أكون في وضع أفضل كى أقوم بحلهما . (Durkheim, E., 1965.) استمر هذا الرأى من الفكر التقليدى ، ومازال مستمرا حتى الآن . وعلى سبيل المثال ، اللقب الذى أعطته الأمم المتحدة للعاملين فى برامج التنمية ، أسمتهم «خبراء» ، هؤلاء الخبراء ، بعضهم من علماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا ، لأنهم يقدمون طريقة علمية تهدف إلى إحداث التنمية ، ومثل هذه المحاولات العلمية لدراسة المجتمع ، يطلق عليها فى بعض الأحيان (الإيجابية أو الوضعية) .

نظرية التحديث :

الأعمال الأخيرة فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية عن التنمية ، لكتاب

كثيرين ، هم (Redfield, 1953, Parsons, 1966' Levy, 1966' Eisenstadt, 1963, Moore, 1963). ردفيلد ١٩٥٣ وبارسونز ١٩٦٦ وليفى ١٩٦٦ وآيزيستاد ١٩٦٣ ومور ١٩٦٣ ، هؤلاء الكتاب قد اتبعوا خطوات "دوركايم" ، ومعظم كتاباتهم تميزت بالكتابات النظرية عن التغير ، وفى بعض الأحيان كان ينقصها البعد التاريخى والتحليل العميق – أنظر مقتطفات من "شوداك" (Chodac , p.p. 183 - 4) ومن "آيزيستاد" (Eisenstadt, p.p.185-6) فالفروض فى خطوطها العريضة مشابهة لمؤلفات "دوركايم" . إن هؤلاء المفكرين دائما ما يوصفون بأنهم منظرون محدثون ، وأعمالهم تشمل نفس العناصر المتأصلة كما فى (الدوركايمية) :

"التطورية والوظيفية والوضعية"

المقتطف التالى كتبه "ويلبرت مور" " Wilbert Moore " سنة ١٩٦٣ ، مثال لهذا الخلط . وفيها يصف التحديث كالآتى : ... هو عبارة عن انتقال كلى للتقاليد أو لما قبل المجتمع الحديث ، لما له من أنماط للتكنولوجيا والمؤسسات الإجتماعية المتقدمة اقتصاديا ، وتتمتع بالرخاء والاستقرار السياسى ، كما هو موجود فى العالم الغربى .
(Moore W. E., Social Change, Prentice Hall, New Jersey, 1964 p. 89.)

هناك عدة سمات توجد فى نظرية التحديث ، والتى نشأت من اتحاد كل من التطورية والوظيفية والوضعية ، وهذه السمات هى :

١ – تحدث التنمية من داخل المجتمع والعوامل الخارجية ، – مثل الاحتلال والعوامل الثقافية ليس لها تأثير هام .
٢ – التنمية تتبع نفس الأنماط فى كل المجتمعات .
٣ – النتيجة النهائية للتنمية هى الثراء والاستقرار السياسى .
٤ – الدراسة العلمية والتاريخية للمجتمع سوف تعيننا على تحديد نماذج من الخبرات الماضية لبعض البلاد مثل الولايات المتحدة وبريطانيا . ونستخدم هذه التجربة والمعرفة لتحدث نفس النتائج فى الدول النامية أو الدول المتخلفة .

وقد اختصر المؤرخ الأمريكى "روستو" (Rostow) هذا المدخل بإيجاز ، عندما كتب "عن المراحل الخمسة للنمو الاقتصادى" : الحركة المرحلية من خلال المراحل التى يمر بها المجتمع التقليدى ، والظروف السابقة لمرحلة التنمية ، والاقلاع أو الانطلاق والاندفاع نحو النضج ، وأخيرا عصر الجماهير الإستهلاكى (Rostow, 1960) .

التأثير الڤيبرى : The Weberian Influence

هناك نظرية اجتماعية تقليدية أخرى غزت نظرية التنمية ، ونشأت عن "ماكس فيبر ١٨٦٤ – ١٩٢٤" معاصر تقريبا "لدوركايم" .

وبكل الطرق نجد أن "ڤيبر" مهتما بالتنمية مباشرة ، وقد كان كل همه هو شرح أو تفسير الرأسمالية (أنظر إطار ١ – ١٢) .

إطار ١ – ١٢ الرأسمالية :

الرأسمالية نسق اقتصادى اجتماعى قائم على جهود الفرد الخاصة فى استثمار رأس المال ، والذى ينتج عن طريق استخدام الآخرين وبيع الإنتاج فى السوق ، مع إعادة استثمار الأرباح من البيع لتوسيع الثروة وزيادة معدل نموها .

والميزات الهامة لهذا النظام هى "السلعة" ، والفكرة أن معظم الأشياء (الأرض والعمل والدم) ، يمكن بيعها . والسوق هو مكان ومحلات وتغير للعملات والمصنع وما يتبعه من توظف – حيث يمكن تبادل السلع بأخرى ، أو بيعها نقدا . إن بعض هذه الآراء تناقش فى الفصل الخامس .

ومن أفضل كتب "ڤيبر" المعروفة هو (أخلاقيات البروتستانت وروح الرأسمالية) ، وقد نشر فى ألمانيا عام ١٩٢٢ ، ونشر باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٠ . إنه يرى أن هناك جزءا من تنمية الرأسمالية ، تظهر بوضوح فيما أحدثته من تغير فى بعض القطاعات فى غرب أوربا وأمريكا ، حيث بدأ المجتمع يفكر وينظر إلى مكانته فى العالم ، ابتداء من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر . ومن الأهمية أن نتذكر أن هذا الكتاب لم يكن الكتاب الوحيد الذى كتبه فى دراسته عن الرأسمالية . إن دراسته للرأسمالية كانت جزءاً من دراسة كبيرة اجتماعية وتاريخية واقتصادية "تجربة عقلية" . وفى هذه التجربة نجده يفحص مجموعة من المجتمعات – فلسطين القديمة ، والهند ، والصين ، وغرب أوربا – آخذا فى الاعتبار محاولة استخلاص المعلومات التاريخية المعقدة ، والتى ظهرت فى مجتمعات مشابهة لنفس المستوى من التنمية التكنولوجية ، ولها توجهات مختلفة . وعلي وجه الخصوص ، فإنه قد حاول أن يجد سببا لانتشار الرأسمالية الصناعية ، والتى أصبحت تشكل نسقا عريضا فى أوربا ، وليست فى

أماكن أخرى . وإجابته على ذلك : يرى أن المعتقدات الدينية لها تأثيرها . وقد أشار إلى نفوذ علماء اللاهوت الفرنسيين ، ومنهم "جين كالفن" (Jean calvin, 1509 - 1564) (١٥٠٩ – ١٥٦٤) .

كان كالفن يعتقد أنه لا يوجد شيء يمكن الإنسان من أن يغير قدره بعد الموت . إن حكمة الله مطلقة ، فهو الذى يقرر ما يحدث . وإن هذا يقلق بعض الذين يعتقدون فى ذلك ، وأن الطريق للخروج من هذه الأزمة النفسية هو الاعتقاد بأن النجاح أو الفشل فى الحياة ، ربما يكون دليلاً على ما إذا كان المرء مصيره الجنة أو الجحيم . فالنجاح مقرون بالجنة والفشل مقرون بالنار . وقد ناقش "فيبر" وأتباع "كالفن" ذلك الموضوع ، وكانوا يعملون بجد فى أى وظيفة يشغلونها ، ويقتصدون ويدخرون ويعيشون عيشة اقتصادية واعية .

وربما يثير هذا التساؤل ، الاستغراب عن العلاقة بين علم اللاهوت الفرنسى «وتنمية المجتمع الرأسمالى . والإجابة هى : إن "فيبر" قد أشار إلى أن انتشار مثل هذا النسق الاعتقادى مع السلوك الاجتماعى الذى يصاحبها ، فإنها تتناسب مع أنشطة الرأسماليين . وعلى ذلك فقد أسهم فى انتشار مثل هذا السلوك خلال المجتمع – حتى بين الآخرين غير التابعين "لكالفن" . ويؤكد "فيبر" أن الرأسمالية لا تعنى الطمع للوصول إلى الربح ، لأن ذلك متواجد فى كل المجتمعات . إن فيبر يرى :

إن الطمع غير المحدود ، ومن أجل الربح ، لا يعنى أنه يساوى الرأسمالية ، بل وما زال أقل فى الروح . وقد تكون الرأسمالية مطابقة للقيود ، أو على الأقل الطابع العقلانى للدوافع الجامحة . ولكن الرأسمالية تعادل المثابرة من أجل الربح وزيادة الأرباح إلى ما لا نهاية ، عن طريق الوسائل المستمرة والعقلانية ، والمشاريع الرأسمالية . ولابد أن تكون هكذا : ففى المجتمع الذى يسوده النظام الرأسمالى نجد أن المشروع الفردى الرأسمالى والذى لا يستغل الفرص المتاحة لتحقيق الأرباح ، فإنه فى الغالب يأخذ طريقه إلى الاضمحلال .

(Weber, M., The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, Unwin, 1967 P.17)

(إطار ١ – ١٣) فيبر والقيم

من الملاحظ وجود نقطتين لهما علاقة بنظرية "فيبر" . النقطة الأولى ، هى انه لا يشابه غيره من التطوريين الاجتماعيين فى أنه لا يرى أى نمط ضرورى أو توجيه للتنمية فى التاريخ والنقطة الثانية ، أنه لا يتخذ طريقة وضعية علمية مشابهة للتى تستخدم فى العلوم الطبيعية .

إنه يقول : إن المجتمعات لابد وأن تشرح أو تفهم فى ضوء مصطلحاتهم ، وليس فى ضوء مصطلحات خاصة بنظريات عامة ، كالتى أنتجها "دوركايم" ... بينما فى استطاعتنا استخدام الوسائل الفنية الواضحة للبحث والمسح والوثائق . والنظرية التى ننتجها يمكن أن تكون فقط طريقة للوصف الدقيق للطريقة التى يعمل بها المجتمع . أما الطريقة التى نسجل بها هذا الوصف فإنها تتأثر بالأسباب التى تدفعنا لطرح هذه الأسئلة فى المكان الأول . وهكذا يرى "ڤيبر" أنه لا يمكن لنا الاقتراب من أى مشكلة فى علم الاجتماع ، إلا من ناحية نظرتك القيمية . وهذا مهم للإتجاهات السياسية لعلم اجتماع التنمية . وهناك بعض الكتّاب يحاولون إعطاء تأثير علمى محايد .

إن تأثير "ڤيبر" على التنمية الاجتماعية وعلى الفكر الاجتماعى ، ليس مباشرا كتأثير "دوركايم" . إنه تأثير اختيارى ، بينما أعطى اهتماما كبيرا للدراسة التاريخية ، فالذين تأثروا به لم يعملوا نفس الشىء ، (أنظر إطار ١ -١٣) وبدلا من ذلك فقد استخدم الكتّاب جزئين من نظريته فيما بعد . الجزء الأول هو آراء الناس وقيمهم (ثقافتهم) وهى عنصر هام فى التنمية ، والجزء الآخر عن فكرة الرأسمالية ، وتشمل نشر ما يسميه "ڤيبر" (السلوك العقلانى) ، ولذلك فقد اصبحت معايير الحياة اليومية . (أنظر إطار ١ - ١٤)

إطار ١ - ١٤ "ڤيبر والعقلانية"

إن فكرة "ڤيبر" عن العقلانية فكرة معقدة . ففى جزء منها يشمل أفكاراً عن الإحصاء والتخطيط ، وتطبق على كل مجالات الحياة . ونفكر جيدا على سبيل المثال فى موقف صاحب المكتبة ، الذى يحتفظ بكل المعلومات عن العمل فى رأسه ، وليس لديه أى فكرة عن كيفية الربح ، ولكنه يبقى فقط على مصاريف المنزل والعمل مختلطين معا ، ثم فكر فى تاجر آخر قد توسع فى عمله ، واقام كمبيوتراً صغيراً ليعرف سوق المال فى الحال وحساب الربح والخسارة . ومن هنا نجد أن صاحب العمل الأخير أكثر تعقلاً عن الأول . فالخطوات موضوعة لتحقق لصاحبها هدفه ، وهو أقصى ربح مع كفاءة عالية .

وفيما بعد ، فقد تبنى بعض المنظرين هذه الآراء - وعلى سبيل المثال ، فإن بعضهم قد أكد أن التغير من التقليدى إلى الحديث فى المجتمعات ، ومن التخلف إلى النمو (التطور) ، يشمل تغيراً فى تفكير الناس فى المجتمع . إن بعض هذه الأفكار قد سبق ذكرها مع الكتّاب

السابقين ، على سبيل المثال "تالكوت بارسونز" (Talcott Parsmons) في الفترة من (١٩٥٥-١٩٧٧)

(Talcott Parsons, The Evolution of societies, ~Prentice - Hall, Englewood Cliffs, 1977, edited and introduced by Jackson Toby Provides a good account of Parsons' writings over the period 1955 - 77). وكثير ممن عملوا معه ، قد أكدوا على أهمية القيم في تحديد سلوك الناس . وهذا واضح في أعمال "دفيد مكليلاند" (David Meclelland) (عام ١٩٦٦) فقال : "نرى دائما أن النمو الاقتصادى السريع يفسر دائما في ضوء العوامل الخارجية – والفرص المتاحة للتجارة والمصادر الطبيعية غير العادية للثروة أو الانفتاحات التي أتاحت فرصة إيجاد أسواق ، أو التي كانت عاملا في الاستقرار السياسي الداخلي – وتحظى العوامل الداخلية باهتمام كبير من الكتّاب والقيم والدوافع لدى الناس ، والتي أتاحت لهم فرصا يستغلونها في الظروف التجارية لصالحهم ، وباختصار لكي تشكل قدرهم .

(The Achievement Motive in Economic Growth, in Hoselitz, B. f. and Moore, W. E. (eds.) Industrialisation and Society, UNESCO-MOUTON, 1966 P.74)

هذا النوع من الاصرار أو التأكيد النظرى theoretical له نتائج ، خاصة في الممارسة – مشكلات التخلف ، والفقر ، وسوء التغذية ينظر اليها على أنها نتاج الفكر التقليدى ، غير العقلانى . وحل مشاكل التنمية وفقا لهذا الرأى يقع على البرامج التعليمية والمساعدات الفنية الهادفة التي تهدف الى زيادة الحاجة الى تحقيق الانجازات للشعوب في الدول النامية .

ملخص :

في هذا الفصل نأخذ العامل المهاجر كنقطة للبداية ، لكي نؤكد كيف تكون حياتنا وعلاقتها بالعوامل والقوى الاجتماعية الخارجة عن إرادة أو سيطرة الأفراد ، أى فيما وراء ضبطنا الفردى .

وقد لوحظ أن علم الاجتماع قد أسسه مفكرون ، مثل "سان سيمون" (Saint - Simon)

و "أوجست كونت" (Auguste Comte) والذين حاولوا فهم التغيرات التى تحدث حولهم فى بداية الثورة الصناعية . إن جذور علم الاجتماع قد ظهرت فى محاولة لفهم التغير الاجتماعى والتنمية .

وفى أواخر القرن التاسع عشر ، بذل "دوركايم" جهدا فى محاولة لشرح التغير الاجتماعى كنتيجة لتغير الروابط الأخلاقية ، وقد سمى هذه الروابط "التضامن الاجتماعى" ومع الآخرين ، أكد على عمليات التطور الاجتماعى وفكر فى دراسة الترابط العضوى للتنظيمات الإجتماعية للمجتمع ، على أن تدرس ككل ، حيث يمكن دراستها علميا . ومثل هذه الآراء ، وجدت قبولاً من أصحاب النظريات الجدد مثل "ولبرت مور" و "وولت روستو" (Wilbert Moore and Walt Rostow) .

وعلى النقيض "لدوركايم" كان "ماكس ڤيبر" (Max Weber) الذى حاول الوصول إلى ما هو موجود فى ديانات الناس والمعتقدات الأخلاقية ، والتى قد أمدت مثل هذه المجتمعات بالخبرات الفنية للتنمية بطرق مختلفة . وقد عرض تأثير مذهب "كلڤن" فى تنمية الرأسمالية الصناعية فى غرب أوربا ، وقد وضحت بعض هذه الأفكار بالتفصيل فى الستينات ، حيث قام كثير من الكتّاب مثل "دافيد مكليلاند" (David Meclelland) .

وهناك موضوع آخر فى هذا الفصل ، هو أن النظريات ليست حقيقية أو مزيفة ، وإنما ينظر إليها على أنها لغات مفيدة ، لمناقشة المشاكل سواء تضمنت أو استبعدت أنواعاً معينة من المعرفة بالنظريات ، توضح المشاكل إلى درجة ما ، وتظهر كيف أن المعرفة يمكن أن تقسم الى مختلف الموضوعات الأكاديمية .

obeikandl.com

الفصل الثانى

نظرية التنمية فى ضوء الخبرة

فى هذا الفصل سوف نعرض كيف انتقدت نظرية التحديث خلال الستينات والسبعينات فى ضوء تجربة الكثير من الدول فى إفريقيا وآسيا ، والتى حصلت على استقلالها أثناء تلك الفترة ، وخبرة دول أمريكا اللاتينية التى قد سبقتها فى الاستقلال ببضع سنوات (أنظر إطار ٢ – ١) . وكانت المعارضة الأساسية لنظرية التحديث ، هى أن الدول النامية تستطيع اتباع خطوات الدول التى نمت من قبل من خلال طريقهم الطويل المستهلك الذى خاضته نحو التنمية . وعندما اثبتت الخبرة عدم حدوث ذلك ، بدأ علماء الاجتماع فى بناء النظريات التى سألت وأجابت على أنواع مختلفة من الأسئلة . وعلى وجه الخصوص التى سألت عن تاريخ الاستعمار وتأثيره على الدول النامية . وبهذا العمل فإنهم نقلوا مناقشة التنمية بعيدا عن المجتمعات كوحدات أخذت فى عزلة . وتوصلوا إلى ضرورة مناقشة مشاكل التنمية لكل مجتمع على حدة ، وأنه يمكن فهمها بالعلاقة لموقع هذا المجتمع من "النسق العالمى" .

إطار ٢ – ١ تواريخ الاستقلال لبعض الدول

افريقيا :

انجولا	١٩٧٥	موزمبيق	١٩٧٥
بنين	١٩٦٠	النيجر	١٩٦٠
تشاد	١٩٦٠	نيجيريا	١٩٦٠
الكنغو	١٩٦٠	رواندا	١٩٦٢
غانا	١٩٥٧	سيراليون	١٩٦١
ساحل العاج	١٩٦٠	السودان	١٩٥٦
كينيا	١٩٦٣	تنزانيا	١٩٦١
مالاوى	١٩٦٤	أوغنده	١٩٦٢
مالى	١٩٦٠	زمبابوى	١٩٨٠

الشرق الأوسط وشمال افريقيا :

الجزائر	١٩٦٠	مراكش	١٩٥٦
الأردن	١٩٤٦	تونس	١٩٥٦
الكويت	١٩٦١	اليمن الشمالية	١٩١٩
لبنان	١٩٤١	اليمن الجنوبية	١٩٦٥
ليبيا	١٩٥١		

جنوب وشرق أسيا والباسفيك

بنجلاديش	١٩٧١	باكستان	١٩٤٧
الهند	١٩٤٧	بابوى-غينيا الجديدة	١٩٧٥
إندونسيا	١٩٤٩	سنغافورة	١٩٥٩
كامبوديا	١٩٥٤	سيريلانكا	١٩٤٨
لاوس	١٩٥٤	تايوان	١٩٤٩
ماليزيا	١٩٥٧	فيتنام	١٩٥٤

جنوب ووسط أمريكا

الأرجنتين	١٨١٠	المكسيك	١٨٢١
بوليفيا	١٨٢٥	نيكاراجوى	١٩٨٨
البرازيل	١٨٢٢	بنما	١٩٠٣
كولومبيا	١٨١٩	بيرو	١٨٢١
كوبا	١٩٠٢	ترينيداد	١٩٦٢
السلفادور	١٨٣٨	أوروجواى	١٨٢٨
هايتى	١٨٠٤	فنزويلا	١٨٣٠

(Seurce : Third World Atlas, Crow, B. and Thomas, A., Open University Press, Milton Keynes, 1983.)

نواحى الضعف فى التحديث :

فى نهاية الستينات أصبح ظاهرا أن هاتين الظاهرتين العريضتين التقليديتين –

الدوركايمية (the Durkeimian) والفيبرية (the Weberian) لم يوضحا بكفاءة عملية التغير التى تحدث فى المناطق ذات المسميات المختلفة الآن ... "الدول النامية والدول المتخلفة أو (دول العالم الثالث) .

إن الدول حديثة الاستقلال فى إفريقيا وآسيا قد توقع منها أن تتقدم بطريقة منتظمة تؤدى إلى النمو الاقتصادى والديموقراطية البرلمانية . بينما نجد أن الانقلابات العسكرية ودول الحزب الواحد ، عَمَّقَتْ الفقر فى كثير من الدول ، كذلك أدت الحرب الفيتنامية إلى تقبل نتائجها على نطاق واسع لدرجة أن معظم التحليلات المنطقية (Logical analyses) كانت غير كافية . إنها لم توضح ما يحدث فى العالم الثالث بشىء من الواقعية ، ولماذا استمر الفشل فى الدول النامية للحصول على الطعام واستمرار حاجة مواطنيها للحصول على نمو اقتصادى وتنمية مستمرة . وتغيرت الاهتمامات من المحاولة لإيجاد طرق تقدمية نحو التنمية . وأصبحت المشكلة الأساسية الآن ، هى تفسير وجود الفقر فى عالم يوجد به بعض الشعوب غاية فى الثراء بينما هناك آخرون يرزحون تحت وطأة الفقر . بينما فى أوربا والولايات المتحدة قد توصلوا إلى أسباب الفقر (انظر إطار ٢ – ٢) .

إطار ٢ – ٢ الفقر والرخاء

كانت فترة الستينات فى بريطانيا فترة رخاء نعم بها معظم البريطانيين . ومع ذلك فإن الأبحاث التى أجريت على الفقر فى المملكة المتحدة أظهرت أنه على الرغم من وجود هذا الرخاء الظاهر ، إلا أن الفقر لازمه على طول الخط ، وظهر ذلك بوضوح حيث قلت الموارد مما أدى إلى منع الكثير من الناس فى المساهمة فى الحياة الاجتماعية ومناسباتها ، مما اعطى للحياة صورة جديدة . مثال ذلك هو اختفاء حفلات أعياد الميلاد أو الذهاب لدور السينما ... الخ ، ونستخلص من ذلك أن الفقر عامة ليس بالضرورة نتيجة لنقص أو عجز فى البضائع أو الخدمات فى المجتمع ولكنه يعكس لنا سوء توزيع مثل هذه البضائع والخدمات .

وجمعت اللجنة الملكية لتوزيع الدخل والثروة المعروفة باسم (Cmnd 7595, HMSO, 1979, known as the Diamond Report) كثيرا من الحقائق عن الموقف فى الستينات وبداية السبعينات . وقد ظهر أنه فى المملكة المتحدة الدولة العالية التنمية ، كان هناك درجة كبيرة من عدم المساواة . إذ أن نسبة ١٠٪ من أصحاب الدخل الكبير حصلوا على نسبة ٢٣٪

من إجمالى الدخل ، بينما نسبة ١٪ من المرموقين مالكى الثروة قد حصلوا على نسبة ٢٧.٦٪ من اجمالى الثروة .

(Diamond Report, 1979, pp. 15 and 80.)

إعادة اكتشاف علم الاجتماع الماركسى :

بمواجهة هذه الصعوبات فى فهم الدول النامية ، أعاد علماء الاجتماع دراسة مصدر آخر من الفكر الاجتماعى الذى قد سبق أن تجاهلها علم الاجتماع الغربى .

وهذه هى الأفكار القائمة على فكر كارل ماركس (Karl Marx) (١٨١٨ – ١٨٨٣) وفردريك إنجلز (friedrich Engels) (١٨٢٠ – ١٨٧٥) وغيرهم من المفكرين الماركسيين أمثال ليون تروتسكى (Leon Trotsky) (١٨٧٩ – ١٩٤٠) وفلاديمير لينن (Vladimir Lenin) (١٨٧٠ – ١٩٢٤) وماو تسى تونج (Moo Tse-tung) (١٨٩٣ – ١٩٧٦) .

إنه لمن الغريب أن نتجاهل مثل هؤلاء ، بسبب أفكار الإثنين الأولين وأعمال الآخرين ، لأنهم قد أحدثوا كثيرا من التغيرات فى حياة الملايين من البشر . وأحد أسباب هذا التجاهل هى الحرب الباردة والآخر لأن آراءهم كانت دائما منتقدة لمفهوم الرأسمالية الحديثة التى كانت نقطة النهاية والهدف للنظريات الإجتماعية الموجودة .

ولدينا مثال على أن بعض النظريات الإجتماعية يمكن أن تكون غير مقبولة بسبب المناخ السياسى والثقافى لفترة بعينها . ففى أثناء الحرب الباردة ، كان من الصعب على أصحاب النظريات theorists الأمريكان رؤية الجانب الآخر .

وهناك سبب إضافى هام لإعادة اكتشاف الفكر الماركسى فى التنمية الاجتماعية هو بدون شك بعد عام ١٩٥٦ كان عمل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين فى كثير من البلاد التى استقلت حديثا . وهناك تقابلوا وتبادلوا الحديث مع أعضاء تلك المجتمعات من المتعلمين ، وتعلموا منهم أنه خلال فترات الكفاح للحصول على الاستقلال فى دول العالم الثالث ، قد وَجَدَ مفكروا هذا العالم أن النظريات الماركسية كان تفسيرها أفضل ، وأرشدتهم للعمل دون منافسة نظرية التحديث الغربية .

ماركس وإنجلز : (Marx and Engels)

عاش "ماركس وإنجلز" فى القرن التاسع عشر ، وواجه كل منهما نفس المشكلات التى مرَّ بها "دوركايم" ، "ڤيبر" والتى حاول كل منهما معالجتها .

وعلى النقيض من هذين المفكرين ، وجد أن عمليات التغير الاجتماعى والتنمية هى الطبيعية ، وليست التدرج والتطور ، وشغل اهتمام كل من العالمين - ماركس وإنجلز - صراع طبقات المجتمع . ولب هذه الصراعات هو ما يسمى بالمتناقضات ، التى هى نتيجة لعدم وجود التناسب بين ماينتجه المجتمع ومصادره البشرية والفنية ، إلى جانب العلاقات الاجتماعية للإنتاج ، والتى حالت دون تحقيق الجهد . وقد نظر إليها على أنها فاصل (disjunction) بين جهود الإنتاج للمجتمع وتوزيع البضائع والخدمات بين أعضائه .

وأهم شىء فى هذه النظرية ، هو رأيها فى التغير الاجتماعى ، الذى تراه وكأنه شىء لابد من حدوثه بعيداً عن الصراع السياسى والتغير الجذرى الراديكالى الذى يصاحبه تفكك بالمجتمع وعدم الاستقرار ، وانقطاع مفاجىء عن كونه تطورا رسميا تدريجيا . وعلى سبيل المثال : إن بعض الناس يشملهم اهتمام واحد قد أبعدوا عن مراكزهم فى الإنتاج (مثل العمال المستأجرين) وعليهم أن يكونوا تنظيما لكى يصلوا إلى النتيجة التى يرغبونها .

هذا الصراع يسمى صراع الطبقات ، وبالنسبة للماركسية ، فإنهم يرونها محرك التغير الاجتماعى والتنمية .

ومن هذا المدخل الرئيسى نبعت أشياء كثيرة ، ولكن واحدة فقط هى التى على درجة من الأهمية لنا... إنها لطبيعة الإمبراطوريات التى قد هزمتها القوى الأوربية . او قد نمت فكرة لدى "لينين" وغيره ، أن الإمبراطوريات ليست نتاج سياسة معتدلة للحضارة الأوربية ، بل على العكس فإن الاستعمار هو نسق استغلالى اقتصادى اجتماعى وسياسى . وعندما تتغير البلاد المستعمرة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، نجد أنها قد غيرتهم فى النظام ، بحيث يمكنهم إيجاد مدخلات رخيصة فى المجتمعات الرأسمالية إلى جانب إيجاد أسواق لتصريف منتجاتهم . كل هذه الترتيبات كانت دائما تعمل من أجل صالح القوة الإمبريالية . ولذا نجد أن السؤال الخاص بالتنمية يختلف عن تلك التى سبق أن أوضحناها . إلا أننى سوف أشير إلى نقطة هامة قد أوضحتها خلال إطار ٢ - ٣ .

إطار ٢ – ٣ الاستعمار فى إفريقيا

يصف هذا الأطار الاستعمار فى أفريقيا بطريقة تتفق والنظرية الماركسية ، ويلاحظ أنها تفرق بين التأثيرات المختلفة للاستعمار فى مناطق مختلفة .

لقد وجد الغزو الاستعمارى ... (أفريقيا) ... على درجات مختلفة من التنمية . وبحلول القرن التاسع عشر ... انتج فلاحو غرب إفريقيا الكثير من المحاصيل والبضائع التى شملت القهوة وجوز الهند والجنزبيل . كل ذلك قد ساعد على رواج التجارة مع أوربا بعض الوقت ، مما أتاح الفرصة للمستعمرين لإخضاع الزراعة المحلية لاهتماماتهم عن طريق احتكار عمليات التسويق والتجارة الإفريقية ...

أما انتاج فلاحى شرق أفريقيا ، فقد كان إنتاجا مغلقا ، واقتصاداً طبيعيا . والتجارة مع أوربا لم تكن منتعشة ، بل كانت ضعيفة ، وتقوم عن طريق التجار العرب ... ولكى يمكن الحصول على المواد الخام الضرورية من حيث النوع والكمية ، فكان لابد من التدخل وإيجاد حل مماثل للموجود فى غرب إفريقيا . إلا أنه فى مثل هذه الحالة كان الحل يتم عن طريق مصادرة الأرض وتشغيل المزارع الأوربية وتحويل الأهالى إلى عمال فى تلك المزارع .

أما فى "الكونجو البلجيكى" فكانت السياسة الاستعمارية مقيدة بانتاج المطاط . ولكى يجعل الإفريقيين يجمعون المطاط ، كان لابد من مصادرة أراضيهم وطردهم بالقوة إلى الغابة (Nzula, A.T., et. al., forced Labour in colonial Africa, Zed Press, 1979, pp.38 - 40. Originally published

إن النظرية الماركسية لاتفرق بين عالم الاجتماع الخبير وبين السياسى صانع السياسة . إنها لا تعترف بذلك لأنها ترى أن النظرية والممارسة ما هما إلا وجها عملة واحدة ، ينموان معا فى علاقة مغلقة واحدة ، وبكلمات أخرى ، أن (اللغة النظرية) لنظرية "ماركس" لابد وأنها ترتبط ارتباطا وثيقا محكماً ، حتى أنها تنمو من خبرات الناس المستغلين والمضطهدين فى حياتهم اليومية . (انظر إطار ٢ – ٤) وعلى ذلك ، إذا ما أردت أن تضع نظرية عن هجرة العمال ، فلا يعنى أنك تجلس فى مكتبك وتضع تلك النظرية ، بل لابد أن تواجه هؤلاء المهاجرين من العمال ، وتستمع إلى قصصهم ، وتدرس خبراتهم ، وتصبح فردا منهم فى كفاحهم ،

عندئذ تستطيع أن تضم كل هذه الخبرات إلى نظريتك ، التى قد تصبح نظرية سياسية واجتماعية .

إطار ٢ – ٤ الماركسية والعلم

إن الفكر الماركسى له نظرية عُلمية ، تختلف عن الوضعية * positivists مثل "دوركايم" وورثته من الصفوة المثقفة . فمن وجهة نظر "ماركس" ، أن النظرية الاجتماعية لا يمكن أن تكون موضوعية (Objective) وذلك للسببين الآتيين : ...

(١) إن ما يميز المجتمع هو صراع الطبقات . (٢) إن الأفكار السائدة (والنظريات) هى أفكار الطبقة الحاكمة . ويتبع ذلك عمليات صراع طبقى ، قد ينشأ عنها جماعات معارضة لها نظرياتها الخاصة ، والتى تمدهم بلغة قادرة على التعامل مع احتياجاتهم ومشاكلهم التى يواجهونها من مواقعهم فى المجتمع . هذا الرأى عن النظريةالاجتماعية يسمى "Praxis" أو العملى أو وحدة النظرية مع الممارسة ، وهى تتناقض مع رأى الوضعيين لعلم الاجتماع ، والتى ترى أن العالم الاجتماعى social world يمكن دراسته على أنه "شىء" .

وبالرغم من أن"ماركس" نفسه لم يطبق ذلك ، إلا أن كثيرا من أتباعه طبقوه . وعلى سبيل المثال نجد "ماوتسى تونج" الذى قاد ثورة الصين فى الثلاثينات والأربعينات ، قد ذهب

* إن "الاتجاه الوضعى" Positivism موقف حسى يدعى أنه يمكن اشتقاق المعرفة من التجربة الحسية ، ولهذا يرفض التأمل الميتافيزيقى والادراك الذاتى ، والتحليل المنطقى ، لأنها وسائل تقع خارج نطاق المعرفة الواقعية ، وتنظر الواقعية إلى مناهج العلوم الطبيعية بوصفها الوسائل الوحيدة الملائمة للحصول على المعرفة ، الأمر الذى يتعين معه على العلوم الاجتماعية أن تقتصر على استخدامها ، وهناك شبه اتفاق على أن كونت هو مؤسس هذا الاتجاه ، ويعنى عنده الاعتماد على الوقائع أو الخبرة ، ورفض الفلسفات ذات التحليلات الميتافيزيقية ولكن كارل بوبر رفض فكرة القانون عند كونت حيث أكد "بوبر" أن القوانين التى تحكم البشرية قوانين سيكولوجية تحول دون الملاحظة المباشرة للحياة الاجتماعية . وحديثا ظهر ما يعرف بالوضعية المنطقية والتى طورتها مدرسة فيينا (برجمان ، وكرناب ، وفرانك ، وشيلك ، وغيرهم) ويهدف هذا الاتجاه إلى التدليل على انعدام الميتافيزيقا ووضع أثاث ثابت للعلوم عن طريق منهج التحليل المنطقى للتصورات والقضايا والاهتمام بالدلالة الامبيريقية لها . ويطلق بارسونز مصطلح الوضعية على أى نظرية اجتماعية ترى "أن العلم الوضعى يمثل العلاقة المعرفية الوحيدة والممكنة للإنسان بالحقيقة الخارجية" : إذن الوضعية تعتبر العلم الطبيعى (وليس التاريخ) هوالنموذج الوحيد للمعرفة الإنسانية ، وينعكس ذلك على تصورها الخاص لطبيعة العلم بوجه عام . كما أن الوضعية المنطقية وهى تطور عن الاتجاه الوضعى ، يرى أن حقيقة أى حكم تكمن فى التحقق منه عن طريق التجربة الحسية .

– محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ، مرجع سابق ص . ص ٣٣٩ ، ٣٤١ . ... [المترجمة] .

بنفسه إلى إقليم هونان "Hunan" الريفى ، وكتب تقريراً مستمداً عما شاهده وسمعه . وهذا العمل يختلف كثيرا عن طرق البحث لكثير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين ، والذين استخدموا زياراتهم الميدانية فقط لاختبار النظريات التى قدموها أو قدمها آخرون من قبلهم .

ومثل هذا الرأى الذى يوضح كيف ولماذا يجرى البحث ويظهر للوجود ، يبين أن مثل هؤلاء الناس مشغولون بالممارسة السياسية ، ومن ثم نجد إصرارهم على إيجاد صلة وثيقة بين التحليل العلمى والعمل السياسى ، وبين النظرية والممارسة السياسية .

وفى عام ١٩٦٧ بدأ هذا الفكر الماركسى التقليدى فى جذب اهتمام مجموعة كبيرة من علماء الإجتماع وآخرين مهتمين بالتنمية .

وقد هاجم فرانك (A. G. Frank) وهو أحد الاقتصاديين الأمريكان ، ومن أصل ألمانى ويقيم فى أمريكا اللاتينية ، نظرية التحديث السائدة بعنوان مثير وهو «علم اجتماع التنمية وتخلف علم الاجتماع» ، كما أعتبر هذا الكاتب هذه النظريات عديمة الفائدة من وجهة النظر السياسية ، لأنهم قد فشلوا فى التعريف الصحيح لأنواع العمليات الاجتماعية والاقتصادية فى الدول النامية . وفى عمل أخير عاد إلى مساندة مثل هذا التأكيد بتفاصيل تاريخية بدراسة حالات مثل "شيلى" و "البرازيل" . ولما كان الاقتصاديون وعلماء الاجتماع بهذه البلاد – أمريكا اللاتينية – تجذبهم الماركسية التقليدية ، فنجد أنهم يوضحون مشاكل مجتمعهم ، وأرجعوها إلى أسباب ايدولوجية ، إلا أن علم الاجتماع الغربى كان دائما يعرفها على أنها «تنمية» .

وإذا ما عرضنا المشكلة بهذه الطريقة ، فإننا نجد أن التنمية يمكن أن تحدث فى أى مجتمع إذا ما تبنى السياسة الاقتصادية السليمة مع برلمان ديموقراطى . وقال "فرانك" إن هذا مستحيل ، فبدلا من إمكانية التنمية نجد أن ما هو موجود فى الواقع عمليات من التخلف . وقد تلاحظ أنه قد أعطى هذه الكلمة معنى جديدا . فهو يعنى أن العلاقات بين الدول الغنية والدول الفقيرة علاقة تعاطف فقط مع الأخيرة . إلا أنه ينبغى أن نراهم على أنهم مدمرون لهم ، ومعوقون ومشوهون لتنميتهم . أى أن التخلف لا يعنى أنه المرحلة التى تسبق التنمية ، بل ينبغى أن ينظر إليها على أنها نتيجة نهائية للاستعمار والاحتلال .

والمصطلح "Underdevelopment" (غير النامية) أو المتخلفة قد استخدم لتعريف الدول التى تستخدم تكنولوجيا بسيطة ، وليست متأثرة بالمجتمعات المتقدمة . وهذا الرأى الخاص

بالدول الناميةوالمتقدمة ، يرى أن ذلك نتاج للتفاعلات بين المجتمعات . (أنظر إطار ٢ – ٥) .

(إطار ٢ – ٥)

(رسالة عن الرأسمالية فى الدول النامية)

ذكر "فرانك" (Frank) فى دراسته عن أمريكا اللاتينية ، أن الدول النامية فى وضعها الحالى ، هى نتيجة للنمو الرأسمالى .

إن الكتابة عن "شيلى" والمفهوم الماركسى المتناقض يقول ... إن التخلف فى شيلى نتاج لأربعة قرون من التنمية الرأسمالية ، مع وجود التناقض فى داخل الرأسمالية نفسها .

وهذه التناقضات هى عبارة عن مصادرة الفائض الاقتصادى من الكثيرين وإعطائها للقلة ، وتركيز النسق الرأسمالى فى المدن الرئيسية والتابعة لها فى الأطراف ، مع استمرار البناء الأساسى للنسق الرأسمالى من خلال تاريخ توسعها ، وانتقالها نتيجة لحدوث مثل هذه المتناقضات فى كل ماكان ، وعبر العصور .

إن رسالتى هذه توضح المتناقضات فى النظام الرأسمالى والتنمية التاريخية فى ظل النسق الرأسمالى قد أوجدت مانسميه بالتخلف التنموى فى الدول التابعة ، والتى يصادر فيها الزائد من إنتاجها ، بينما ولدت تنمية اقتصادية فى المدن المركزية ، والتى تستولى على ذلك الفائض – وإلى حد ما فإن هذه العملية لا تزال مستمرة .
(Frank, A.G., Capitalism and Underdevelopment in Latin America, Penguin, 1971p.27.)

تحول علم اجتماع التنمية :

إن هذا الخط من الفكر جعل علم اجتماع التنمية أكثر انتقادا وإحراجا لوجود هذه العلاقات بين الأغنياء والفقراء من الدول . وقد أثيرت بعض التساؤلات مثل : هل الطريق للتنمية يكون ثوريا أو انسحابا كاملا من نسق العالم الاجتماعى والسياسى والعلاقات الاقتصادية أم لا ؟ كما أن هذه العلاقات قد أوجدت أسئلة ليست مريحة عن العلاقات بين الأجزاء المختلفة للمجتمع الواحد ، وليست فقط فى دول العالم الثالث ، وعلى سبيل المثال ، بين أغنياء جنوب شرق بريطانيا وبين فقراء الشمال .

وقد عرف "فرانك" (Frank) وآخرون ممن كانوا فى اتفاق واضح معه ، قد أصبحوا معروفين كأصحاب (نظريات التبعية) "Dependency Theorists" وقد أثارت أفكارهم سؤالا عن التنمية بطريقة جديدة ، وعلى وجه الخصوص ، فقد تضمنت ما يجب على علماء الإجتماع أن ينظروا طويلا إلى "أنفسهم" ويتعجبوا كيف حدثت تنميتهم . إنها قد اتخذت (تنميتنا) داخل الحسابات فى شرح تنميتهم . ومهم للغاية أنها جعلت علماء الاجتماع يفكرون بجدية فى دراسة التاريخ ، ودور الماضى فى فهم الحاضر .

وبعيدا عن التحيز ، فإن نظرية التبعية قد أعطت الشرح بمنتهى السهولة .فمشاكل العالم الثالث يمكن أن تفهم الآن كعائد للاستثمار أو الاستغلال من جانب العالم المتقدم .ولكن العوامل الداخلية كالقصور أو النقص فى الموارد الطبيعية ، وصراع الطبقات أو النمو أو الزيادة السكانية ، يمكننا من إعادة النظر فيها . وبهذا البعد فإنها قد شجعت اليوتوبيين بدرجة ما – وكل شيء سيكون صحيحا إذا ما كانت التبعية حدثت فى نفس الاتجاه ، وأيضا بدرجة من التشاؤم ، إذا ما كانت التبعية فلم تحدث أو تتفق مع نفس الإتجاه . وعلى ذلك فلا يمكن للسياسيين ، وصانعى القرار أو الناس أن يعملوا شيئا . فى حين ظهرت نظرية التبعية لتمدنا بنموذج بسيط ، وقوى لطبيعة وأصل التخلف . وقد فشلت فى مواجهة بعض الأسئلة الهامة والمحورية فى نظرية التحديث . وعلى الأخص فإنها لم تعط الوزن الحقيقى للدور الذى يقوم به كل من الأفكار والثقافة فى التنمية . وإنك سوف تعيد السؤال ، تحت تأثير "ڤيبر" (Weber) . عن ما هو الدور الذى لعبته المعتقدات الدينية . إن أسئلة كهذه تبقى غائبة عن نظرية التبعية . وبالإضافة إلى ذلك ، يمكن القول إن نظرية التبعية عامة للغاية . وإنها لا تفرق بكفاءة بين ما هو تاريخى وبين ظروف وملابسات المجتمعات المختلفة . ويمكنك أن ترى من المثال فى (الإطار ٢ – ٣) فى افريقيا حيث التعدد الاستعمارى . إنه قد اعتمد على تكوين من التنظيم الاجتماعى والاقتصادى المتواجد هناك قبل الاستعمار .

بحث ورسالة "وارن" (Warren) :

هناك إحدى الإجابات التى ترد على نظرية التبعية من قلب الماركسية . فمن الملاحظ أن التنمية تمتد جذورها فى زى ماركسى لاتخاذ شكل رأسمالى مدمر للمجتمعات غير الرأسمالية ، لكى يسمح بإقامة هذا البناء أولا بجوار الخطوط الرأسمالية ، وبعد ذلك الاشتراكية . إن "ماركس" فى كتاباته المتبعثرة عن الهند فى القرن التاسع عشر يلوم ما رآه بالطبيعة المتحفظة العميقة للمجتمع الشرقى . و"بيل وارن" فى كتابته سنة ١٩٨٠ (الاستعمار رائد الرأسمالية ١٩٨٠) يلوم

بالتساوى ما يعتبره باليوتوبيا (المثالية) أو مثالية نظرية التبعية (Dependence) فهو يراها نتاج لفترة ما قبل الاستعمار ، والتى كانت جزءا من الايدولوجية القومية ، وصاحبة حركات الاستقلال ، وقد استخدمت كسبب لوجود الفقر والتخلف فى دول العالم الثالث ، ملقية باللوم على الدول النامية ، وفشلت فى ملاحظة أن التنمية الرأسمالية أخذت مكانها فى كثير من دول العالم الثالث . وعلى سبيل المثال فى مصر والأرجنتين والبرازيل ، يمكننا القول بأن الصناعات هى الأساس والأهم فى الاقتصاد ، كما هو موجود فى الولايات المتحدة وكندا . "وارن" سنة ١٩٨٠ ص ٢٤٥ (Warren, 1980) إنه يقول أن نظرية التبعية لم تعترف أن هناك أسبابا كثيرة داخلية فى مجتمعات العالم الثالث ، والتى كانت سببا فى تخلفهم (انظر إطار ٢ – ٦) فهو هنا يفكر فى غياب الملتزم أو المقاول (الذى اعتقد "فيبر" و"ماكلاند" فى أهميته) وبالتالى فإن هناك أنماط ثقافية مثل عزل المرأة أو استبعادها .

إطار ٢ – ٦ رأى "وارن" فى التنمية الرأسمالية :

(١) إن رأيه على النقيض للآراء الماركسية السائدة "والتى يقصد بها – نظرية التبعية" ، فالحقائق تؤكد أن احتمال نجاح التنمية الرأسمالية فى الدول المتخلفة هو الأفضل
(٢) إن هناك تقدما ماديا "من خلال هذه السطور" أمكن تحقيقه ، خاصة فى التصنيع .
(٣) إن الإستعمار المباشر بعيد عن أنه سبب التخلف أو التشوه لطبيعة التنمية الرأسمالية ، إذ أنه يقوم بدور الآلة القوية للتغير الاجتماعى المستمر عن طريق تأثيره المدمر على الأنساق الاجتماعية قبل الرأسمالية ، وذلك عن طريق إيجاده لعناصر رأسمالية (٤) طالما أن هناك عوامل معوقة ... للتنمية ، لم تنشأ فى العلاقات بين الاستعمار والعالم الثالث ، ولكنها نتاج المتناقضات الداخلية فى العالم الثالث نفسه (Warren, B., 1980) .

بارنجتون مور : (Barrington Moore)

هو أحد أصحاب نظرية التنمية ، والذى يقف بعيدا عن نظرية التبعية "بارنجتون مور" وهو كمؤرخ ، فحص تاريخ العديد من الدول المختلفة مثل فرنسا والولايات المتحدة واليابان والصين ، وقد توصل إلى وجود طرق مختلفة للتنمية ، وفى رأيه أن هناك ثلاث طرق فى :

(١) الثورة الديمقراطية البرجوازية أو الشعبية ليقوم بها أو تقودها الطبقة المتوسطة القوية بالفطرة ، والتى نشأ عنها الرأسمالية الديمقراطية فى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة .

(٢) الثورة الفاشستية كما فى ألمانيا واليابان ، حيث كانت مهارات الملتزمين أو المقاولين ضعيفة ، وجدت الرأسمالية من خلال السلطة الحاكمة .

(٣) ثورة الفلاحين ، والتى تؤدى إلى الشيوعية ، كما فى روسيا والصين ، وتتركز فى ملكيات جافة ذات اتجاه للتنمية الرأسمالية ، وكان الطريق يعتمد على الطبقات الصاعدة من طبقات الفلاحين ، ويقودها المفكرون «الصفوة المثقفون» .

ويختلف "مور" عن الماركسية وعن نظرية التحديث ، إلا أنه يستخدم أفكارا من كل منهما . وفى رأى "مور" أن التنمية المتصلة ، عملية داخلية ، وتعتمد النتائج على قوة الترابط لطبقات المجتمع .

والطبقتان الرئيسيتان اللتان يهتم بهما تبدوان بوضوح من البداية فى عنوان كتابه (الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية : السيد والفلاح فى عملية خلق عالم جديد (Penguin, 1966) .

نظرية النسق العالمى : (World System Theory)

هذا النمط من النظريات يمتد جذوره إلى الماركسية ، فهو عبارة عن تطور لنظرية التبعية ، إلا أنه يختلف عنها فيما تلقيه من اهتمام للخواص التاريخية لمناطق مختلفة من العالم ، ولا تعمم بنفس الطريقة . فهى ترى أن مشاكل العالم الثالث نتيجة لعلاقات تاريخية كان فيها الاستغلال بين الدول المتقدمة والمجتمعات النامية أو المتخلفة (Underdeveloped) ونرى المنظور قد تغير كلية ، فنرى أن التنمية لا ينظر إليها على أنها مشكلة تواجهها مجتمعات منفصلة ، فلا يوجد مجتمع لا يتأثر كلية بالتنمية العالمية الاقتصادية الاجتماعية .

وبالرغم من أن هذا الرأى ليس جديدا ، فإنه قد أعيد كتابته بوضوح فى مؤلفات "إيمانويل والرستين" (Immanuel Wall) . ففى كتابه "النسق العالمى الحديث : الرأسمالية الزراعية وأصول الاقتصاد الأوربى فى القرن السادس عشر (Academic Press, New York, 1974) يقول "والرستين" :

... لقد تخليت عن الأخذ بفكرة سيطرة الدولة أو ذلك المفهوم الغامض (Vaguer concept) "المجتمع القومى" كوحدة للتحليل . وقررت أن كليهما نسق اجتماعى ، ولكن المرء يمكنه التحدث

عن التغير الاجتماعى فى الأنساق الاجتماعية . وأن النسق الوحيد فى هذا المخطط هو النسق العالمى . (Wallerstein, I., 1974 p.7.) . نظريات النسق العالمى ("وارستين" لم يكن وحده ، بل كان هناك "سمير أمين" و "فرانك" فى كتاباته الأخيرة) يمدون بلغة نظرية تجمع بين نظريات الصراع الاجتماعى مع الاقتصاد ومع الحقائق الاقتصادية والتاريخية على نطاق عالمى . وهى تحلل مشاكل بعينها للتنمية والتخلف من خلال مصطلحات تاريخية واجتماعية واقتصادية ، فى الضوء العريض لأحداث المجتمع العالمى ، وعلى وجه الخصوص تنمية الرأسمالية . وفى ضوء هذه الرؤية للأشياء ، نرى أن العمالة المهاجرة الذين بدأنا بهم ، ليست وحدها . والأشياء الأخرى التى يمر بها العمال المهاجرون ، يمكن لنا رؤيتها كنتاج لواقعهم من خلال مصطلحات التغير التاريخى التى تحدث فى العالم .

الفلاحون والنسق العالمى :

هناك تطور للنظرية الاجتماعية لابد وأن نكون على علم به ، وهو استجابة للمشاكل الظاهرة فى نظرية التبعية . وربما يمكنك أن تسترجع أن نظرية التبعية ، كانت عامة للغاية ، وإنها تتهم بذلك "العمومية" للغاية (too genneral) ، لأنها لا تشرح شيئا . وللرد على هذا ، نستطيع أن نفحص تفاصيل الأنساق الاجتماعية فى العالم الثالث ، ولكى نشرح لماذا كانت من خلال النسق الرأسمالى نو العلاقات المستغلة بين المجتمعات . وبعض المجتمعات تبدو أنها قادرة على البقاء والإنتاج بطرق لم تكن على الأقل رأسمالية .إن هذه النماذج المختلفة للإنتاج ، ولو على المستوى الصغير ، مزرعة لفلاح أو مرعى صغير ليست رأسمالية ، فهم لا يعتمدون على عمال بالأجر ، يعملون لدى صاحب عمل ما ، أو لدى أصحاب مزارع خاصة – فماذا هم كانوا ؟ وكيف انغمسوا داخل العلاقات الخاصة بالتبعية بين المجتمعات ؟

والإجابة أمدتنا على أنهم قد أسهموا فى نمو الرأسمالية ، لأنهم قدموا مدخلات رخيصة إلى الإنتاج الرأسمالى . (انظر الإطار ٢ – ٧) .

إطار ٢ – ٧ (فلاح فى كولومبيا)

إن "مايكل توسج" (Michael Taussig) قد درس العلاقة بين الملكيات الزراعية الصغيرة وبين المزارع الكبيرة فى وادى «كوكا» بكولومبيا ، وتوصل إلى النتيجة التالية : فى

تطور العلاقات بين الزراعة الرأسمالية والإنتاج الزراعى ، فنجد أن الأولى كانت أقل كفاءة عن الأخيرة ، نتيجة لعدة حقائق وأزمات . وبسبب احتكارها للأرض ، فنجد أن الزراعة الرأسمالية تعوض عن عدم كفايتها بأنها تستفيد من كفاءة الفلاح نفسه ... فهى تتجه لتخفيض حجم الأرض الزراعية عند الحد الأدنى معطية الحرية لطبقة الرأسمالية لكى تجمع الفائض . وبكلمات أخرى كبر الحجم والتكنولوجيا لا يعنون فقط الكفاءة ، ولكنهم مزودون بالعضلات الضرورية لدفع العمالة بالقوة ، إلى جانب النظام والسلطة الضرورية لاستخلاص فائض القيمة من العمالة .

(Taussig, M., Peasant Economics and thd Development of Capitalist Agriculture in the Cauca Valley, Colombia, in Harriss, J. C. (ed.) Rural development, Hutchinson, 1982, p.181.)

وعلى سبيل المثال ، المنتجون الزراعيون ، لا يحسبون بدقة تكاليف عملهم . فهم يعملون بجد ، طالما وأن ذلك مطلوب لمقابلة احتياجاتهم من أجل البقاء . وإذا ما انخفضت أسعار منتجاتهم ، تجدهم يعملون ساعات أطول ، فهم لا يحصون الثمن بدقة ، ولا يحسبون ما إذا كانت هذه الساعات الأكثر تساوى شيئا فى مصطلحات الربح . وإذا كانت ظروف السوق معادية ، فإنهم يستطيعون نظريا الإنسحاب من الإنتاج إلى السوق . وكلما ظل الفلاح هو المنتج ، فإنه يظل جزءا مرتبطاً بالنسق العالمى ، وعندئذ فإنهم يقدمون أو يمدون أشكالا مختلفة من المدخلات الرخيصة للإنتاج ، سواء تمثلت فى عمالة رخيصة أو قطن رخيص .

الفلاحون كنوع خاص من الاقتصاد :

لقد فسر علماء الاجتماع (والاقتصاديون) أن الاقتصاد الفلاحى فعّال للغاية . ومما يؤكد أو يبرهن على ذلك ، أن مزارع الفلاحين ليست بدائية ، ومن ثم فهم لم يكونوا أكفاء بدرجة عالية ، إلا أن لديهم معلومات تفصيلية عن زراعتهم . وبسبب رغبتهم فى البقاء ، فإنهم يبذلون جهدا كبيرا فى العمل فى كل جزء من الأرض .

وبخصوص هذه الحقيقة ، هناك مدرسة خاصة من علماء الاجتماع ترى أن سياسة التنمية الزراعية فى دول العالم الثالث ، لابد وأن تؤثر فى الفلاح صاحب الملكية الصغيرة ، وفى

الزراعة التى لها رأس مال مكثف . وهذا الرأى له تاريخ طويل يرتبط بالاقتصاديين الروس ، وخاصة فى الثمانينات من أواخر القرن الثمن عشر ولخصها "الكسندر تشايانوف" "(Alexander Chayanov) ١٩١٢ – ١٩٣٧" وأصبح معروفا باسم (مبادىء حزب الشعب) "Populism" ، وقد أنشىء هذا الحزب عام ١٨١٩ ، وهو يدعو إلى سيطرة الدولة على المنشآت العامة ، والحد من الملكية الخاصة ، وخاصة ملكية الأراضى الزراعية . وهو يتساءل عما اذا كان التصنيع هو الطريق الرئيسى للتنمية الإقتصادية ، ويتساءل أيضا عما أذا كان رأس المال المكثف الزراعى حقيقة مناسبا لجميع أجزاء العالم . وهذه النظرية الخاصة والنظرية الشعبية "Populist theory" توجه الاهتمام باستراتيجيات رأس المال المكثف المفروض عن طريق الحكومات ، ينظم ويخطط حياة الريفيين ومقيدا لحريتهم فى الاختيار بالنسبة لاتخاذ قرار الإنتاج . هذه القيود تدفعهم إلى مقاومة الحكومة بطرق مختلفة ، فهم يشعرون بأنهم قد استغلوا . (انظر إطار ٢ – ٨) .

إطار ٢ – ٨

الحكومات والفلاح الأجير :

فى هذا المقتطف ، يهتم "جيفن وليامز" "Gavin Williams" بأن يبين أن هناك ثورة يقوم بها الصفوة المفكرة بالمدن أو الحضر ، ويمكن أن تنتهى لصالح الفلاحين . وإذا ما حدث ذلك فإنها تهدد أسس قيام الثورة بأن تثير الرغبة لدى الفلاحين فى المعارضة وخفض إنتاج الأغذية ، وهذا ما حدث فى الإتحاد السوفيتى عقب الثورة فى عام ١٩١٧ وكما حدثت أيضا فى الدول الإفريقية ، خاصة فى اثيوبيا منذ عام ١٩٧٤ .

... إن الانتصار الثورى ربما يعطى (الطبقة البرجوازية الصغيرة) السيطرة على مؤسسات الدولة القوية ، والتى لا يستطيع غيرها إدارتها ، وينهى اعتمادها على الجماهير . ومن ثم فالحاجة تدعو إلى البعد عن استمرار هذه المؤسسات فى المركزية ... الدولة ، وعاصمتها ، والقصر الجمهورى ، والوزارات المتمركزة فى العاصمة وسلسلة السلطات . أما السياسة الاقتصادية فالأفضلية لابد وأن تعطى لمن ينتج الطعام .

وهذا لا يتحقق عن طريق إرشادات الدولة للفلاح المنتج ، وإنما يتحقق فقط عن طريق

تشجيعه ليكون البادىء ، وذلك بناء على خبرتهم ، بالإضافة إلى تحسين وجودهم المادى مع حماية مكاسبهم ضد أى متطلبات ، حتى لو كانت من قبل الحكومة الثورية .

(Williams, G. P., Taking the Part of Peasants, in Harriss, J. C., (ed.), 1982, p.381.)

ويرى "وليامز" إذا لم يستغل الفلاح فسوف يظل منتجا للطعام . وقد اتخذ البنك العالمى (الذى يقوم باقراض الكثير من مشاريع التنمية الزراعية فى دول العالم الثالث) هذا الرأى فى السنوات الأخيرة ، حيث يرى أن إقراض الفلاح والزراعة فى الغالب ، استراتيجية كفء للتنمية فى دول العالم الثالث نظرا لظروفه .

الاجتماع والتنمية والنظرية الاجتماعية :

أين يتركنا هذا ؟ يمكننا رؤية رحلة العمالة المهاجرة من خلال الضوء الجديد . وبالتحرك تجاه هذا المنظور الجديد ، نجد أن علم اجتماع التنمية نفسه قد مر خلال عمليات هائلة من التنمية . وهذا يرجع إلى أنه توقف أو أقلع عن النظرة الضيقة ، وبدأ يأخذ بعين الاعتبار التاريخ والخبرة لأناس عاديين من خلال كفاحهم من أجل البقاء وتغيير عالمهم . ولكن ظلت هناك مشاكل رئيسية كثيرة .

إن هذه المشاكل الملفتة للنظر من خلال الصفحات السابقة القليلة ، وبالرغم من دخول آراء وأفكار علم الاجتماع الماركسى من خلال نظرية النسق العالمى ونظرية التبعية ، فإن هناك نوعا من الوظيفية . فالنسق العالمى يتكون من أجزاء تجعله يعمل بطريقة خاصة تعينه على نشر وتنمية الرأسمالية .

وربما هذه الظاهرة ، هى نتاج الفكر العلمى . فإذا ما حددت النسق الخاص بك كما حدد " والرستين " فإنه بدون شكل يمكنك شرح كيفية عمله وأجزائه كلها . إنها لدائرة من النقاش ، والتى من الصعب إيجاد مخرج منها .إذ أن لها علاقة بالمشاكل فى أى علم . أما الخطر الذى تقدمه ، فهو أنه ربما ننسى هذا " النسق " . وعندما نحلل فإننا نحلل الأشياء التى نفكر فيها من الناحية البيوجرافية والتاريخية . فإذا ما نسينا ذلك ، نواجه خطر الحركة باستخدام اللغة النظرية ، والتى هى فى كثير أو قليل مفيدة ، فقولنا أن " النسق " هو

"حقيقى" عملية حسابية ، وسيئة فيما يخبرنا به عما هو صواب أو خطأ .

بالرغم من نواحى الضعف والقصور فى الوظيفية ، فإن النظرية السائدة للتنمية الاجتماعية تظل منتقدة (Critical) للظروف التى نشأ عنها الفقر ، والصعاب التى يواجهها معظم شعوب العالم ، وتحدد مصدر هذه المشاكل فى داخل الصراع من أجل الموارد بين دول العالم الأول ودول العالم الثالث وبين الجماعات داخل هذه المجتمعات العالمية .

ملخص:

فى هذا الفصل ، رأينا كيف أن الماركسية قد أثرت فى نظرية التنمية وأدت إلى عدد من التوجهات ، مؤكدة أن التنمية والتخلف هى نتيجة للتفاعل بين المجتمعات وبيئاتهم . وأن هذه النظريات قد ألقت الضوء على الامبريالية . وفى الخمس عشرة سنة الأخيرة ، كان معظم المداخل تأثيرا هما نظرية التبعية ونظرية النسق العالمى ، وكلاهما ضد نظرية التحديث . وفى داخل الماركسية التقليدية ظهرت انتقادات وآراء مضادة ، خاصة مانشره "وارن" .

openkandl.com